روايات الهلال

الطيور.. لن تعود

عبد المقصود محمد

REWAYAT AL-HILAL
No. 438 — June 1985



روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٣٨ – يونية ١٩٨٥ – رمضان ١٤٠٥
No. 438 — June 1985

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : موسى عبيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية ستة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحاد البريد العربى والافريقى والباكستان اثنا عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

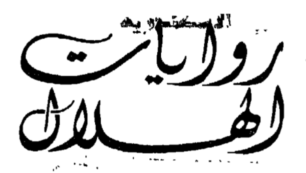
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م ع نقدا أوبحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية والخارج للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال الشهرية بسعر ٥٠٠ مليم للقارىء فى مصر ، سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ ق.ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس ، العراق ١٢٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ١٢٥٠ م. سودانى ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٥٠ سنتا ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريالات ، اديس ابابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٢ فرنكا ، لندن ١٠٠ بنس ، ايطاليا ٢٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ ماركات ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجيلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ، ملودين ، عدن ٤٠٠ فلس

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عزالعرب – القاهرة

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
ســــبيحة حسنين

الطيور لن تعود



عبد المقصود محمد

دار الهلال

« إهداء »

لولا حبك وحنانك ورعايتك
ما وجدت وقتا لكتابة هذه
الصفحات التى أهديها إلى
روحك الطاهرة يا أمى

مقــدمة

بقلم : الأستاذة الدكتورة سهير القلماوى

ما يزال الروائى الجديد « عبد المقصود محمد » يتلمس طريقه إلى أن يــكون روائيا عظيما • والبــداية التى تتمثــل فى أولى رواياته التى نشرت منذ أربعة أعوام « إذا جــاء الشــفق » ــ ضمن سلسلة روايات مختارة ــ كانت واعدة بالكثير وهذا هــو بعد هذه الأعوام من العكوف على القراءة والتأليف يخرج لنــا روايته الثانية « الطيور لن تعود » لتبشر بأن هذا الروائى لاشك واصــل باذن الله إلى مكانة فنية فى عالم الرواية تتحقق فيهــا آماله وآمالنافى مستقبل الرواية العربية المصرية •

والروائى « عبد المقصود محمد » له خصائص أسلوبية يحافظ عليها ويجهد فى تطويرها دون أن تفقد أصــالتها فى الدلالة على شخصيته • ففى روايته الاولى كنا تتحسس معه فى هذه المجموعة من العرب مسلمين ومسيحيين ويهود مايربط بين العرب جميعا من خصائص مميزة قومية ودينية وتاريخية • وفى هذه الرواية التى نقدمها للقارىء اليوم نجده يركــز على مجتمع « البلدة » الصغيرة بين القرية والمدينة التى تشرئب بعنقها نحو التغيير فتتحرك نحوه ولكن فى بطء شديد يأتى من طبيعة البشر ومن رواسب السنين ولكنه يأتى أساسا من إيمان بالقدر غير سليم • فقــدرة الانسان من قدرة الله ، ألم يخلق الله الانســان على صورته ؟

ولا سبيل إلى فهم قدرة الله حق الفهم إلا إذا أمنا بأن الله خلق الانسان قادرا فى حدود قدرة الله •ومن هنا كان واجبا أن تتصحح مفاهيم كثيرة وأن تصوب مدركات أساسية وأن نعيد ترتيب قيمنا وأن نغوص فى أعماقها لنصل إلى جذورها السليمة••

فى هذه البلدة مدرسة ، وبطل « الطيور •• لن تعود » وهو راوى القصة يأتى إليها مدرسا موفدا من العاصمة ، لا تربطه بالعاصمة إلا أواصر واهية وفى البلدة يجد مجتمعا غريبا عليه ولكنه فى الوقت نفسه فيه من المألوف ما يجعل التعامل معه يسيرا ، ويتحرك البطل وسط هذه المجموعة بعلاقات تختلف وتتطور حتى يصبح واحدا منهم بالزواج من بنت من بناتهم •

ولا يفوت البطل الراوى أن يذكرنا وهو يصف عجرفة الناظر بالنظرة التى مازالت سائدة إلى الزواج ودوره فى بناء المجتمع الجديد •

وعنصر الشر فى البلدة يكاد يكون شرا مصفى مثلما يوجد فى حكاوى الأطفال : مجدى يرتكب أى شىء فى سبيل ما يريد وما أحقر ما يريد وكل هذا تحت غلاف شفاف لم يلمحه البطل أول الأمر ثم عرفه واختبره •

ونقف بنهاية الرواية وهى هامة جدا ومحك كبير لقدرة أى روائى مهما عظم • هنا نجد هجرة إلى الأمل الجديد : تعمير الصحراء •• وقد دفع إليه حادث واقعى مقنع منطقيا ولكنه غير مقنع فنيا ذلك أن البطل اشتبك فى معركة مع الشر « مجدى » فانهالت عليه الزوجة الشابة « بيد الهون » فأردته صريعا فيما بدا

لهما . فحمل البطل المدرس زوجه وابنته « أمل المستقبل » وفر .
ولما لفظته المدينة ممثلة فى أقاربه اتجه إلى صحراء وهناك علم أن مجدى لم يمت وأنه ماكان هناك أى داع للهجرة ولكن « الطيور .. لن تعود » ..

وهذه النهاية كما أسلفت مقنعة منطقية ولكنها لا تخدم فنية الرواية التى تحركت طوال سفحاتها على « رتم » بطىء وفجأة تتكوم أحداث جسام فى صفحاتها الأخيرة .

والنهاية هامة لا من حيث تحديها لقدرات الروائى الفنية فحسب ولكن من حيث أنها هى مفتاح الهدف للرواية كلها . والهدف سواء أكان واضحا أو غائما ، بسيطا أو معقدا فهو يشكل البداية وتسلسل الأحداث ويحرك الشخصيات ويؤثر بشكل فعال فى الحوار .

لحسن الحظ لا نجد مؤلفنا ينزلق بسهولة فى المباشرة والتبشير بما يزيد قوله أو يهدفه . وقد كان ذلك عيبا من عيوب روايته الأولى تجاوزه فى روايته هذه الثانية بقدرة واضحة .

ان « عبد المقصود محمد » ما يزال يعتمد اعتمادا واضحا على الشكل الكلاسى للرواية أى على الشكل السردى المتتابع زمنيا والذى لا يستغل المكان ليقوم بدوره ، غير أن يكون مجرد مكان للأحداث وفى مثل هذه الروايات يتوحدالمكان كثيرا وإذا تغير فانه لا يتغير إلا مرات قليلة ليكون وعاء مناسبا للأحداث ولتواجد الشخصيات ولكنه لا يؤدى أى دور . حتى مناظر الطبيعة وحتى ما يدل عليه وجود عنصر منها فى كل عنوان لروايتيه « الشفق »

فى الأولى « والطيور » فى الثانية حتى هذه المناظر تأتى لماما ولا توظف • ولكنه لحسن الحظ لا يقف بها متغزلا فى عـــالم رومانسى بعيد عن أحداث الرواية وجوها • إنها لمحات طيبـة سريعة إن كانت مقصودة فهى لا تنم عن هذا القصد • و « عبـد المقصود محمد » تتجلى قدراته فى تحرك الحدث تحركا بطيئـا طبيعيا ملائما لحياة البلدة وفى تحرك الأحداث ، ومن خلال هذا التحرك أساسا نتعرف على الشخصيات : فهى من أفعالها وحوارها تتكون أمامنا ــ وأن يكن التكوين سريعا نوعا ما ــ ثم تسـتمر تتحرك من الأحداث فى بطئها ورتابتها فى نفس الاطـــار الذى رسمته لنا تحركاتها وأقوالها الأولى •

ولابد من أن أنوه بملكة الوصف ، وصف الأشـياء والناس فالروائى الجـديد يتفوق فى هــذا وفى جعل اللمحات السريعة القوية ــ فى إعطائنا الخطوط العريضة للجو أو للشخصية ــ تمتاز بالشفافية والتوفيق فى اختيارها من بين كل ما حولهــا من ركـام الحياة اليومية ، مما هو غير فنى ، أو غير لازم للصورة الفنية •

إن رواية « الطيور •• لن تعود » من أحسن ما قرأت للشـباب الباحث على طريق الفن الطويل ، وما أكثر ما يعرض الشباب على من إنتاجهم وما أكثر ماتتجلى سعادتى عندما أجد من بينهم قلة أراها فعلا واعدة مبشرة بمستقبل أرجو أن يكون عظيما ومن أبرز من فى هذه القلة مؤلف هذه الرواية •

سهير القلماوى

ـ ١ ـ

كانت السيارة النصف نقل تسير فى شوارع القرية مخلفة سحب الدخان والتراب ، الأطفال يجرون وراءها محاولين اللحاق بها ، رأيت الباب مغلقا ، طلبت من السائق أن يطلق « زمرة » قــوية ففعل ، نزلت من السيارة ، تراجع الأطفال ووقفوا متربصين على بعد عشرة أمتار ، ناديت بأعلى صوتى :

ــ يا أستاذ مجدى ، أستاذ مجدى .

دققت الباب بشدة ، لكن أحدا لم يرد ، تملكتنى الحيرة ، رأيت القلق فى عينيه ، تنهد وسألنى محركا يده بعصبية ، أليس معك مفتاح ؟

ــ لا ، ممكن تساعدنى !

ــ ممكن .

قالها بنوع من الضيق ونزل يبحث عن شىء ، التقط حجرا ، فك به جانبا من صندوق السيارة صعد فوقهــا وبدأ يناولنى أجــزاء السرير ، صندوق الكتب ، حقيبة الملابس وبعض الأدوات المنزلية. شكرته وأعطيته جنيهين ، تبقى من الأطفال ثلاثة ، وقفوا يحملقون ويتهامسون ناديت أحدهم وسألته : تعرف الجمعية الزراعية ؟

ــ نعم .

ــ اذهب وقل للأستاذ مجدى : جاءك ضيف .

ــ طيب .

وضع طرف الجلباب فى أسنانه وانطلق رافعا ذراعيــه كجناحى الطائرة .

انبعث من المنزل المقابل صوت أجش : يادعبس .. يادعبس .

لبى أحد الطفلين النداء بسرعة ووقف الآخر يمضغ ياقة جلبابه وينظر إلى بعينين نصف مفتوحتين . لمحت فى شباك المنزل المقابل فلاحة ترفع رأســها وتشرئب لــكى ترانى ، احترمت فضــولها والتفت إلى الجانب الآخر ، فجأة ظهرت أمامى فتاة فى مقتبــل العمر ، وجهها ناصع البيــاض ، ملىء بالنمش ، شــعرها كستنائى منكوش ، ترتدى ثوبا أسود ، جرت نحوى وأمسكت يدى وهى تصرخ بصوت مبحوح :

ـ آه ، الدم ، حسن .. آه ، حرام ، الدم ...

ـ ابعدى ياسعاد يامجنونة ، عيب .. اتركى الأستاذ .

قالها أحد الأطفال محاولا أن يبعدها عنى ولكنها استمرت فى الصراخ وضغطت على معصمى فانغرست فيه أظافرها الطويلة ، تملكنى الضيق فربت على كتفها مهدئا وسألتها : ماذا تريدين ؟!

ـ أعطها قرشا يا أستاذ .

ـ كنت قل لى من الأول وارحمنى .

خطفت القرش وابتعدت وهى تردد كلمات غير مفهومة ، بعــد لحظات خرج من المنزل المقابل فلاح كهل يرتدى ثوبا أزرق بفتحة واسعة ، صدره مغطى بالشعر الأبيض ، تبرز عظام صدره تحت رقبة رفيعة معروفة ، وجهه شــاحب ملىء بالتجــاعيد ، تعلو شفتيه ابتسامة تفيض بالألفة ، على بعد ثلاثة أمتار صاح وكأنه يعرفنى

من مدة طويلة : أهلا وسهلا .
ـ آهلا ياحاج .
ـ تفضل معى حتى يأتى الأستاذ مجدى .
ـ شكرا ، أرسلت صبيا يناديه .
ـ الجمعية مغلقة ويظهر أنه فى مشوار .
ـ لكن هذه الحاجات ...
ـ لا ، اطمئن .. تعال هنا يادعبس .
شكرته وذهبت معه ، نادى زوجته : « يا أم دعبس ، افتحى المندرة » .

ـ ٢ ـ

أقفاص الحمام معلقة على الجدران ، الذباب يحوم فى أسراب ويحط على بقايا الأطعمة المتناثرة ، ملأت أنفى رائحة مركبة من النشادر ودخان الفرن ، المندرة فسيحة متجددة الهواء ، جلست على أريكة من الخشب مغطاة بفروة خروف ، رحب بى كثيرا وهو يحضر أدوات الشاى فقلت :
ـ والله ياحاج ماتتعب نفسك .
ـ ألن نستطيع القيام بالواجب ، ولا ايه . ؟
ـ لا أقصد .
ـ خلاص .. وليتك تطاوعنى ، عندنا صينية بطاطس معمولة فى الفرن .
ـ شكرا ياحاج .. ألف شكر .

جلس القرفصاء وبدأ يشعل الوابور ثم سألنى :

ــ وحضرتك تقرب أيه لمجدى أفندى • ؟

ــ شكلى يدل على ذلك •• ؟

ــ القرابة ليست بالشكل •

ــ أنا مدرس جديد ، وبحثت عن سكن فى الكفر فلم أجد والاستاذ مجدى وافق على أن أسكن معه •

ــ طيب •• على خيرة الله •

قالها بتردد كمن يسلم بأن لافائدة من الكلام ، لكنه استطرد بنبرة من يريد أن يتأكد :

ــ يعنى حضرتك لست من الصعيد ؟

ــ لا ، أنا من روض الفرج •

ــ أهلا وسهلا ، أنا لى أخت جنبكم فى شبرا وكلما سمح الوقت أذهب لزيارتها •

ــ ربنا يخليكم لبعض •

ــ الله يكرمك ، شىء إلهى •• قلبى انفتح لك وأحسست بأنك ليس عندك لوع ولا تغريك تقاليع الخنافس والكلام الفارغ •• مجدى أفندى طالع فيها ، مسبسب شعره ومعلق على الجدران صور الراقصات وحاجة مسخرة ، إنما حضرتك مختلف عنه ، حكم أولاد الأصول سيماهم على وجوههم •

ــ شكرا ، هذا شعور طيب منك ياحاج •

ــ يظهر أن والدك رجل متدين •

ــ الحقيقة ، أنا يتيم وأخى الأكبر هو الذى قام برعايتى والانفاق

على حتى تخرجت فى كلية الآداب •
ـ ونعم الأخ •• على العموم اعتبره حل مؤقت •
ـ ماهو ••؟
ـ السكن •
ـ آه •• ربنا يسهل •• انما إيه رأيك في مجدى ••؟
ـ مجدى ••؟
نطقها باستياء واضح وزاغ بعينيه لحظات ثم قال :
ـ أنا فى الأول حسبتك من أقارب مجدى فقلت أحـكى لك ما يحدث منه لعلك تؤثر فيه •
ـ انت شغلتنى وأرجو أن تصارحنى •
ـ أصارحك بايه ولا إيه ••!
تنهد وأشاح بوجهه فانعكس ضوء الوابور على تجاعيده الغائرة كان مستغرقا فى تفكير حزين ، التفت مواصلا حديثه : نحن دائما نعتبر أن الجار قبل الدار والرفيق قبل الطـريق ، ومجـدى هذا يعض اليد التى تطعمه ، جاء الى البلد من سنتين وكان مثـل القطة المغمضة فأحببناه كلنا ، وبمرور الوقت ظهر على حقيقته •
ـ لكنى رأيت الناس يحترمونه •
ـ إذا قابلك السفيه ، اعمل له كعكة وهاديه •
ـ من يسمع كلامك يشعر أن مجدى مقطع السمكة وذيلهـا كما يقولون •
ـ أغلبية الناس مازالوا مخدوعين فيه •• تفضل الشاى •
تناولت الكوب ، أدى به الانفعـال الى نوبة من السعال ،

شعرت بعدم ارتياح وقلت لنفسى : لو كلامه صحيح ••• تبقى داهية ؟ •

مرت لحظات من الصمت وهو ينظر للاشىء ثم قال :

ـ ماكان يصح أن أقول هذا الكلام ولكنى صارحتك حتى تكون على بينة •• وعلى رأى المثل : حرص من صاحبك ولا تخونه •

ـ فعلا •

قلتها وأنا شارد الذهن ، أحسست أنه سيتراجع ويحول دفة الحديث ، حاولت الامساك بطرف الخيط فقلت :

ـ يظهر أنه إنسان غريب خالص •

ـ ياسلام على هذا البنى آدم ياسلام ؟•

قالها بنبرة أسى ، مط شفتيه بنوع من الضيق ، رفع حاجبيه محاولا تذكر شىء محدد ثم أكمل قائلا :

ـ من حوالى سنة حصلت جريمة قتل وكان من المشتبه فيهم إنما تعرف •• طلع منها كما تطلع الشعرة من العجين •

ـ يجوز أنه كان بريئا •

ـ وحياتك ، كان له يد فى العملية وكان يطمع فى زوجة القتيل •• سعاد المجنونة ، البت ماسمعت عنها •

تذكرت وجهها الأبيض المنمش ، شعرها الكستنائى المنكوش ، أظافرها الطويلة ، تمنيت أن يكون مخطئا وتملكتنى الحيرة فقلت :

ـ ومن هو القاتل الذى ••

ـ الأستاذ مجدى وصل •

قالها ابنه دعبس قاطعا سؤالى ، قرأت فى عينيه كلاما كثيرا لخصه بسرعة :

ــ قيدوها ضد مجهول وأراحوا أنفسهم •

ــ يا للأسف •

قلتها وارتشفت ماتبقى من الشاى ثم شكرته وقمت •

كان باب المندرة مفتوحا ، رأيت الفلاحة التى تطلعت إلى من الشباك ، دخلت حاملة فنطاس المياه ، فارعة الطول ، ممتلئة القوام ، خمرية كحلاء ، تفيض بالعافية والشباب ، تقدمنى أبو دعبس إلى خارج البيت قائلا : تفضل يا أستاذ •• هذه المرة لا تحسب وتبقى حضرتك تشرفنا •

ــ باذن الله ياحاج •

ــ ٣ ــ

بدأ الجو يعتم وتداعى الناس إلى السكون ، وجدت الباب مفتوحا ولا شىء من حاجياتى فى الشارع ، كانت لفتة كريمة منه ، صفقت وناديته : يا أستاذ مجدى •

فخرج من الغرفة قائلا : أهلا ، حمد الله على السلامة •• متى وصلت •؟

ــ من حوالى ساعة •

ــ وايه وقعك فى هذا الرجل المخبول •؟

ــ من •؟ أبودعبس ، إنه رجل طيب •

ــ والله ماطيب إلا انت ، إنه رجل آخر جنان ، عنده وش

فى مخه .

ــ إلى الآن أرى أنه عاقل جدا وحاول أن يقــوم بالواجب فاستضافنى حتى تأتى .

ــ يا أستاذ كمال .. أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة ، وأنا موجود فى هذا الكفر منذ أكثر من سنتين .

ــ لكننى لا أصدر على الناس أحكاما مسبقة ، وانطباعى الأول.

ــ هل رأيت زينات ؟.

ــ زينات من ؟.

ــ زوجته .

ــ قصدك ايه ؟!.

ــ لو لم يكن مخبولا لما تزوجها .

ــ لماذا ؟.

ــ ألم أقل أنك طيب . ؟ المهم .. ادخل الآن غير ملابسك وتعال نجلس فى الصالة .

ــ حاضر .

وجدته قد نصب سريرى وفرد عليه المرتبة واللحاف ونظم الغرفة بشكل جيد ، فتحت حقيبة ملابسى ، أخذت منها بيجامة ، فككت أزار القميص وأنا أسأل نفسى : « لماذا حاول كل منهما أن يشوه صورة الآخر » ؟

أمن أجل المرأة ؟. وهل لمجدى يد فى جريمة قتل الأسطى حسن ؟ . ارتديت البيجامة وخرجت فوجدته يشعل كومة « قوالح» فى « المنقد » الفخارى . جلست على الكنبة فالتفت إلى وقال :

ـ الرجل الذى يتزوج بنتا أصغر منه بثلاثين عاما •• واحد من اثنين : ياناقص عقل •• ياناقص دين وفى الحالتين يســـتاهل كل مايجرى له •

ـ قصدك أبو دعبس •؟

ـ طبعا •• أرأيت زوجته •؟

ـ رأيت فلاحة شابة •

ـ هى ، زينات •• أتتصور أن العلاقة بينهما فيها تكافؤ •!

ـ ممكن •

ـ كيف •؟ لا ، لا ، لا •

قالها بانفعال وهو يهز رأسه ، يحرك سبابته بعصبية ، يستخدم كل ملامحه فى التعبير عن رفضه • فقلت :

ـ يا أستاذ مجدى ، العلاقة الزوجية لا تخضع لمقيــاس واحد نعرف به إن كانت متكافئة أم لا •

ـ ياصاحبى ، إنها تلعب بالبيضة والحجـــر •• آه ، آه ياناری ••

•• زينة ، زينة زينة ، يازينة ، يازينة •

حينئذ دخلت « سعاد » المجنونة ، ابتسم لها وصاح :

ـ « جئت فى وقتك ياسعاد •• تعالى » •

تسمرت فى مكانها ، زمت شفتيها بغيظ وعصبية ، أطلت النظـــر إليها ، كانت تحدق فى « بنظرات لاتتفق مع صفة الجنون ، حركت شفتيها فى صمت كأنها تحدث نفسها ، قمت إلى الغرفة ، أخذت قرشا من جيب البنطلون ، ذهبت إليها : « خذى ياسعاد » • دفعت

يدي بعنف ، ابتلت أصابعى من عرقها الغزير ، فمسحتها فى المنديل رميت القرش فى حجرها ، بسرعة قذفته على الكنبة ، لمحت ابتسامة على شفتى مجدى فقلت : « خذيه وقومى الله يقرفك » •

ــ لا تتعب نفسك ، أنا محرج عليها الا تأخذ حاجة من ضيوفى •

ــ هل هى تأتى •• ؟

ــ كل يوم فى الصباح والمساء •

ــ كل يوم • ؟!

ــ نعم ، تكنس البيت ، تغسل الأطباق ، تشترى الأكل •

ــ ياه •• تكنس البيت معقولة •• إنما الأكل ••!

ــ سعاد فيها شيء لله وعندما تعرفها لن تقرف منها •

ــ كيف لا أقرف وهى تنجس أى شيء تلمسه •• انها مصنع ميكروبات متحرك •

ــ أغضبتها حرام عليك •

كانت تشد شعرها بعصبية ، قامت وفى عينيها نظرة اتهام ، صرخت بأعلى صوتها وخرجت بسرعة ، اقشعر بدنى ، وتملكتنى الحيرة عندما قرأت على وجهه علامات الاستياء :

ــ إيه يامجدى •• حصل ايه •؟

ــ مفروض تكون ذوق فى معاملة الناس ، ولا انت قلت : مجنونة •؟

ــ وأنا مالى •؟

ــ كنت تقول لى رأيك فيها بعد ماتمشى •

ــ كأنها صرخت لهذا السبب •!؟

ــ طبعا يا أخى •

ــ يظهر انك لم تفهم شيئا من نظراتها اليك • ؟

ــ تقصد ايه يعنى ••؟

ــ انت عارف قصدى وهذه ليست طريقة تحدثنى بها •

مرت فترة من الصمت الكئيب ، أمسك سيخا ، حشره فى قلب النارجيلة ، بدأ يحركه لينظفها ، غلى الشاى وفار على المنقد ، فى لحظة واحدة طشطشت القوالح المتأججة ثم تفحمت وبخار المـــاء يتصاعد بلون أزرق ويبدو أنه كان شاردا بذهنه فى أشياء بعيدة فنبهته : « الشاى يامجدى » •

ــ هه •• يا خير •

دخل محمود الفراش فألقى التحية وشد على يدى مرحبا :

ــ حمدالله بالسلامة •• حضرة الناظر أرسلنى اليك •

ــ سأرتدى ملابسى وأقوم معك •

ــ أنت ماصدقت ••؟ انتظر الشاى •

ــ لا •• اعفنى منه •

ــ ٤ ــ

خرجت مع محمود وكان المساء يلف القرية بلمسة شاعرية ، أحسست بانتعاش فملأت صدرى بالنسيم المعطر وقلت لنفسى :

ــ ملعونة المدن بهوائها الفاسد •

انحرفنا إلى شارع جانبى فقابلتنا رائحة « الفل » ، استنشقت بصوت مسموع وقلت : « الله » •

رفع يده إلى الغصون المدلاة على السور القصير ، قطف زهرة وناولها لى قائلا : انه بيت حضرة الناظر .

ــ ياه . فيللا جميلة والله .

دق على الباب الخشبى بقبضة يده فانطلق من الداخل نباح كلب عجوز ، بعد لحظات ركن الى الهدوء فسمعنا من يناديه :

ــ تعال يابندق .

وقال محمود : إنه مدحت ابن حضرة الناظر .

انفتح الباب وخرج طفل فى العاشرة ، استقبلنا مرحبا ، كان يافعا أخذ عن والده أغلب ملامحه ، سرنا فى مشاية ضيقة تحت تكعيبة عنب ، أوراقها كثيفة ، عناقيدها ناضجة ومحجبة عن العصافير بأوراق الجرائد ، صعدنا خمس درجات ثم دخلنا حجرة الصالون المضاءة بنجفة كبيرة ، جلسنا على مقاعد وثيرة تحمل طابعا ارستقراطيا . ساد الصمت لحظات ، سمعت بعدها صوت الناظر يتحدث مع ذويه فى الداخل ثم ضحك وأتى بوجه بشوش : يا أهلا .. يا أهلا . كان يرتدى جلبابا فضفاضا وتبدو على جفونه انتفاخة من قام لتوه من النوم ، جلس فى المقعد المقابل ، فرك عينيه وقال :

ــ بعثت محمود اليك بعد الظهر فلم يجدك فقلت يمكن عملت حسابك تأتى غدا ، وبعدين لقيت جسمى همدانا فنعست .

ــ نوم العافية .. الحقيقة ، أنا وصلت بعد العصر .

ــ وياترى السكن مناسب ؟.

ــ يقولون : المضطر يركب الصعب .

ـ لا ، إن شاء الله كل حاجة تبقى سهلة •
استدار محمود ناحيتى ورفع يده بحركة بطيئة قائلا :
ـ على فكرة ، أنا لما دخلت عليكما رأيت حضرتك متغيرا •
ـ فعلا •• حصل بيننا حوار ساخن بسبب سعاد المجنونة •
وما أن نطقت باسمها حتى ضحكوا وقال الناظر :
ـ يظهر أن مجدى لا يطيق رؤيتها لأنها اتهمته بقتل زوجها ، ثم إن دوام الأحوال من المحال ••
ـ مسيرك تجد سكن أفضل •
ـ ربنا يسهل •
ـ قوى •• من يدرى ، أنت اليوم لا تجد غرفة ولعل الأيام تخبىءلك البيت والعروسة والأولاد • من يدرى لعل القدر جاء بك إلى هنا لأجل نصيبك المقسوم •
وتطوع الفراش مؤكدا رأى الناظر : كل شىء جائز •
ـ أنا مثلا •• تغربت يومين فى المنصورة فعرفت أم مدحت •• يعنى قصدى أقول لك إن الدنيا ••
ـ مساء الخير •
انسابت هذه التحيـة إلى أذنى بصوت رقيق فيه بحة عذبة ، التفت فرأيتها سيدة فى منتصف العقد الرابع من عمرها ، تتمتـع بقدر وافر من الصحة وتبدو عليها مسحة الحياة الرغدة ، فهمت أنها زوجة الناظر فقمت وصافحتها بشىء من الخجل محاولا أن أبدو بمظهر من يجيد فن « الاتيكيت » :
ـ أهلا مدام •

وقدمنى الناظر : الأستاذ كمال ، مدرس التاريخ الذى حدثتك عنه •

ــ أهلا وسهلا •

قالتها كملكة متواضعة وجلست بجوار زوجها ثم استطردت :

ــ من سنة مافتحوا المدرسة الاعدادى فى الكفر وأبو مدحت هو الناظر وكل سنة يأتى مدرسون جدد ويكون هو مثل والد لهم •• فأنت لا تعتبر نفسك فى غربة وأى مشكلة تقابلك نحن هنا مثل أهلك •

ــ أنا شاكر جدا •

قلتها فأحسست بأنى لم أوفق فى الرد ، وتمنيت لو قلت :

ــ ميرسى ، ميرسى خالص •

لكننى رجعت أقول لنفسى : يجب أن أكون طبيعيا ، صحيح أنهم يعيشون فى مستوى أعلى من مستواى بكثير ولكنهم على مايبدو متواضعون •

فى نفس اللحظة كانت تسأل الفراش : عامل ايه يامحمود •؟

تذكرت أنها لم تحدثه حين دخلت ، شممت فى ذلك رائحة تعال ثم استبعدت هذه الفكرة لأنه أجابها من غير تكليف :

ــ آهى ماشية والحمد لله •

وفى غمرة الاحساس بالجو الأسرى وكرم الضيافة ،دخلت كطيف ملائكى شفاف ، ألقت التحية ، لا أذكر ماذا قالت بالضبط لكن صوتها الناعم دغدغ كل مشاعرى وخفق قلبى بشدة ، حينئذ قال الناظر بشىء من الفخر :

ــ ابنتى « منى » فى الثانوية العامة .

كانت بشرتها ناصعة البياض وشعرها الفاحم ينسدل على وجهها البيضاوى فتصرخ ملامحها الرقيقة بجمال فرعونى آخاذ ، طن فى ذاكرتى كلام أبيها ، فتمنيت أن تكون هى نصيبى المقسوم ، وضعت صينية الشاى برفق وخرجت لكن حلما من أحلام اليقظة كان يتحرك فى خيالى .

ــ ٥ ــ

وجدت الباب مغلقا ومن جوانبه يخرج بصيص النور فيسطر على تراب الشارع خطوطا رفيعة ، ترددت قبل أن أطرق الباب ، مرت لحظات وأنا أنصت بدهشة :

ــ ليلتك أنس ياشيخ الغفر .

ــ ومن أين يأتى الأنس ، من الأفندى الذى سكنته معك لكى يبلغ عنا . ؟

ــ عندما تراه ستطمئن اليه ، انه غلبان .

ــ أخشى أن يكون هذا الغلبان تبع المباحث متنكرا .

ــ لا تخف ، أنا قرأت بطاقته وتأكدت أنه مدرس .

ــ ايه رأيك فى التعميرة ياسى مجدى .

ــ عال قوى ، بس الجوزة سخنت ياحلو .

ــ كسبت معك قوى يامعلم بدوى .

ــ بلا نيلة ، أقعد ساكت .

دققت الباب فسمعت أحدهم يقول بصوت جاف :

ـ قم انت ياسعد افتح الباب •

قابلتنى سحابة من دخان ثقيل عندما فتح الباب شاب ذو بشرة سمراء ، وجهه مسحوب وأذناه كبيرتان ، أكمل فتح الباب وهو يعلنهم •• الأستاذ وصل •

كانوا يتطلعون بشيء من الفضول ، ألقيت التحية فردوا بشيء من الحماس وقاموا عن أماكنهم فصافحتهم واستدرت نحو الذى فتح لى الباب لكنى اكتشفت أن زراعه الأيمن مبتور من أسفل الكتف مباشرة وبسرعة مد يده اليسرى فصافحنى وعلى شفتيه ابتسامة عريضة :

ـ بلدنا نورت يابيه ، أهلا وسهلا •

أشار مجدى بأصبع سبابته وقال : أعرفك بالرجال •• أولا عم جابر شيخ الخفر ، المعلم بدوى تاجر حبوب ، سعد « أبو ودان » سريح بالأرزاقى •

ـ أهلا وسهلا •

قلتها وجلست على الكنبة الى جانب مجدى واستأنفوا ما كانوا عليه :

ـ هات السبعة •

ـ على كم هذه المرة •؟

ـ ربع جنيه •

ـ بس هى آخر لعبة •• عليك على آخر لعبة •

ـ ماشى •

قدم مجدى النارجيلة الى المعلم : « تعميرة ثقيلة يامعلم لكى

تروق مزاجك » .

وضع طرف المبسم فى فمه وضم شفتيه الغليظتين ثم شفط نفسا عميقا ونفخ سحابة دخان باهت قائلا :

ــ عليك نور ياسى نيلة .

وقع بصرى على شيخ الخفر ، اقشعر بدنى لوقع المفاجأة ، كان يرمقنى بنظرة صعبة الدلالة ، نظرة نارية تنطلق من عينين مظلمتين غائرتين كعينى القرد ، ابتسم بخبث فظهرت أسنانه الغليظة المعــوجة تحت شاربه الأسود المنفوش وقال بصوت قبيح :

ــ ان شاء الله ياافندى تكون بلدنا أعجبتك .

ــ طبعا .. كفاية جوها النظيف وناسها الطيبين .

حول المعلم النارجيلة الى شيخ الخفر وأخرج ورقة من فئــة الخمسين قرشا ، وضعها على الطبلية : العب هذه يانيلة .

ــ لا ياحلو العبها على مرتين .

ــ يااهل الله .

ــ آه أمك ياسعد .

قالها مجدى بشماتة وجرى إلى الباب ففتحه ، دخلت عجوز نحيلة مهلهلة الثياب وقالت بصوت مرتعش :

ــ اتمسوا بالخير يا أولاد .. بقى ياسعيد انتظرك وأقعد من غير عشاء فتطعنى اللطعة السوداء هذه ، اخص عليك .

ــ بس ، بس .. اسبقينى على هناك ، امشى .

قالها بغضب وأشاح عنها وهمهم : لو كان عزرائيل يفتكرك !

فقال شيخ الخفر : قم ياسعد ، حرام عليك .. روح مع أمك .

ــ يابنى كفاية بقى ، شبعت نوم وأنا قاعدة لوحدى •
ــ خلاص قلت لك اسبقينى •
قام ودفعها للخارج ومشى يؤنبها فتأثرت ولم أستطع أن أمنع نفسى من القول : « أبهذه القسوة يعامل أمه وهى فى هذه السن»؟!
فضحك المعلم بسخرية وهز رأسه قائلا :
ــ يوه • ! إنه اختشى منك ولم يضربها •
وقال جابر مفسرا : ولا مؤاخذة ياافندى ، أنت لاتعرف حاجة •
ــ لكنها أمه ، وفضل الأم ••
ــ أصلها سبب تعاسته لأن والده لما توفى كان صغيرا وكان الوحيد على سبع بنات ، أبوه ترك له ميراثا يؤمن مستقبله وكانت هى الوصية عليه فصرفت أمواله على أزواج بناتها وأهملت تربيته فطلع هو ياموﻻى كما خلقتنى وذاق المر فى صباه وكان يبيع فى القطارات فوقع بين قطارين وفقد ذراعه الأيمن •
ــ آه •• ومن هنا بدأ يكرهها ويشعر أنها ••
ــ بينى وبينك هى مكروهة من الجميع •
قالها مجدى مقاطعا ثم استطرد :
ــ لأنها عكاكة ، توقع الناس فى بعضهم وتعمل بينهم بحر سم •
ــ أعوذ بالله •
ــ ومع ذلك عمرها مجبس •
وقال شيخ الخفر : انها تعى أيام حفر البحر •!
فرد عليه المعلم : طيب ايه رأيك إنها مغالطة عزرائيل فى سنتين ! •

ـ. ها .. ها .. هاى .

فى هذه اللحظة سمعنا دقات سريعة مضطربة ، وفتح مجدى الباب فسأله شاب خائف :

ـ عم جابر هنا ياسى ..؟

وقبل أن يكمل سؤاله لمح شيخ الخفر فاندفع اليه قائلا بتوسل :

ـ الحقنى ياعم جابر يريدون تجنيدى ، انهم يبحثون عنى .

هرش جابر قفاه وقال بخبث : هل شاهدك أحد وأنت قادم الى هنا .؟

ـ لا .. أنا هربت قبل أن يرانى أحد .

ـ هات خمسة جنيهات .

ـ حاضر .

قالها بانكسار وأخرج حافظة نقوده ثم ناوله ورقة خضراء فطبقها وأخفاها فى جيب الصديرى قائلا : وخمسة جنيهات لمجدى أفندى .

ـ هه .. مجدى أفندى .!

ـ أيوه .. وقت اللزوم ستختبىء هنا اذا جاء « البوكس » من المركز .

ومد يده فرفع كسوة الكنبة ثم فتح جانبها واذا بهـا « سحارة طويلة » .

هز الشاب رأسه بنوع من الاستسلام وقال :

ـ ليس معى الا ثلاثة جنيهات .

ـ ياحسين عيب عليك ، انت لا يقل مكسبك فى اليوم عـن عشرين جنيها صافيا .

ـ والله ياعم جابر آنا ..

ـ هات ويبقى عليك له جنيهان .

وخطف الثلاثة جنيهات بغيظ ثم طبقهم ورماهم فى حجر مجدى وانتفض واقفا وهو يردد :

ـ هيه .. تعال ياسى حسين ، تعال .. تهربوا من التجنيد وتقلوا راحتنا معكم .

دس مجدى النقود فى جيبه وقام فأغلق الباب وهو يقول :

ـ لئيم قوى الولد حسين .

فرد عليم المعلم بدوى : لئيم على من . ؟ جابر .. قطعا سيفتشه ويأخذ مامعه .

حينئذ لم أستطع أن أمنع نفسى من القول :

ـ ولماذا يهرب هذا الشاب من التجنيد .؟

ـ المكسب يا أستاذ ، انه يعمل فى المعمار ولا يقل مكسبه اليومى عن عشرين جنيها واعتاد أن ينفقهم فى شرب المكيفات .. فماذا يفعل اذا دخل الجيش ؟ . وقد صار مدمنا .!

ـ أعتقد أن شيخ الخفر هو الذى ساعده على ذلك .

ـ يعنى شيخ الخفر كلب خشب ، انه يريد ان يعيش هو الآخر.

ـ ويعيش بنقود حرام ..؟ !

ضحك الرجل ملء شدقيه كأننى قلت نكتة وأجاب :

ـ ياسيدنا الأفندى ليس هذا هو زمن الحرام والحلال ، آنت مثلا : ماذا ستفعل .؟ أنت تريد أن تعيش .. قطعا ستجبر التلامذة على الدروس الخصوصية .

ــ لا ، مستحيل •
ــ غدا سأذكرك •

ــ ٦ ــ

تقلبت فى سريرى ، فتحت عينى فرأيت الشمس قد طوقت الشباك باطار ذهبى يشيع فى الغرفة ضوءا باهتا ، التفت الى سرير مجدى فوجدته غارقا فى سبات عميق ، فاغرا فاه حتى برزت أسـنانه الصفراء ، وينبعث شخيره المزعج من فمه ومنخاره بالتناوب •

حبات العرق تلمع فى وجهه ، هرشت رأسى،فركت عينى ، نظرت فى ساعتى ، كانت تشير الى التاسعة والربع صباحا ، قمت نافضا الاحساس بالخمول ، فتحت الباب فقابلتنى نسمة باردة ، أحسست بالجوع يقبض أمعائى ، ترددت قليلا ثم عدت فأيقظته ، كانت عيناه محمرتين جفونه منتفخة ، ارتكز على كوعه وتثاءب ثم قال :

ــ صباح الخير •• الساعة كم • ؟
ــ تأخرنا فى النوم ، الساعة تسعة وربع •
ــ ياه • ! لازم أشترى العيش قبل مايخلص •

نهض فارتدى جلبابه ، أخذ الفوطة وخرج ، استنشقت نفسـا عميقا ولعبت بعض التمارين الرياضية •

جاء يسألنى :

ــ تفطر ايه ياكمال • ؟
ــ أى حاجة •

طيب ، خذ الصفيحة ، املأها واغتسل ، ماء الزير ينعشك •

ـ المهم انك لا تتأخر لأنى جوعان •
ـ حاضر •
توضأت وصليت ثم بدأت فى ترتيب الغرفة دخل حاملا الخبز ، كيس « طعمية » طبق فول ، جرشت حبة رمل وأنا أمضغ أول لقمة ، رأيته يأكل بنهم فبلعتها ، لكن اللقمة الثانية كانت أسوأ منها ، ندت عنى زفرة غيظ وقلت بصوت مسموع :
ـ أستغفر الله العظيم •
ـ ماذا • ؟
ـ يا أخى العيش مخبوز على رمل ؟!
تناول رغيفين وحك كل منهمـا فى الآخر ثم وضعهما أمـامى قائلا :
ـ كل وجه الرغيف •
ـ حرام والله ان العيش يخبز باهمال هكذا •
ـ الاهمال فى كل مكان •• يعنى العيش فى مصر أحسن من هنا أبدا •
ـ قد يكون أسمر ، أو خشنا ولكن ليس فيه رمل •
ـ السنة الماضية كنت أسعى فى الوزارة لنقلى من الجمعية ، وبعدين دخلت مطعما فاخرا •• هناك فى الدقى • تعرف لقيت ايه فى الرغيف ؟
ـ لقيت ايه • ؟
ـ عقب سيجارة • وطبعا الدقى منطقة راقية •
ـ اذا انعدم الضمير فلا فرق بين منطقة راقية وشعبية •

ــ بالضبط ، والطعمية ايه رأيك فيها • ؟

ــ ساخنة وشهية جدا •• وكذلك الفول •

خيم الصمت برهة ، كنت جائعا وللطعام نكهة لذيذة ، فتبارينا فى الأكل •

رأيته يبتسم وفى ملامحه بعض الشرور ، ظننته قد تذكر وجبة معينة استمتع بها فى يوم ما ••

لكنه فاجأنى بقوله :

ــ أستاذ كمال •• هل لك تجارب مع البنات •؟

ــ تجارب • بمعنى ايه • ؟

ــ وأنت فى الجامعة ، ألم يكن لك علاقة حب •؟

ــ حصل • ! حصل انى أحببت ، واستمرت العلاقة لمدة ثلاث سنوات ، لكن للأسف •• عند أول محطة اكتشفت أنها كانت تخدعنى وتتسلى بى •

ــ لازم العريس كان « لقطة » •

ــ يعنى •! كان جاهزا كما يقولون •

ــ خلاص •• ماعاد يوجد وفاء أو حب صادق •

قالها بتأثر كمن يوجه لوما لحبيبته واستطرد وهو يقوم :

ــ كل انت أنا أسرع منك فى الأكل •

مضغ لقمته الأخيرة ، بلعها وسكب فى حلقه كوب ماء ثم التفت وسألنى بنبرة من يعرف الاجابة مقدما :

ــ أرأيت منى ؟

ــ منى • ؟ آه ابنة الناظر •

ـ ما رأيك فيها ؟

ـ من ناحية ايه ؟

ـ ها ، ها .. وتقول انك أحببت ..!

ـ وما دخل الحب هنا ؟

ـ الحب يجعلك ذواقة ، ويصحى جواك الاحساس بالجمال .

ـ رأيتها وهى تقدم لنا الشاى ، وكان واضحا انها جميلة .

ـ قل : ملكة جمال ، جنينة ورد بلدى .. ياسلام .

قال الكلمة الأخيرة بنبرة طويلة حالمة وأغمض عينيه كأنه يحتضن صورتها بين جفونه ، ثم قال بشىء من المجاملة :

ـ ليتها تكون لك .

ـ وأنت ؟

ـ أنا . ؟ بالنسبة لها صعلوك ، ايه يعنى كاتب فى جمعية زراعية ، أى شىء أكون جنب « منى » ، كفاية انها بنت مرسى المنشاوى .

ـ انت بهذا جعلتنى أحس أنها اكبر من طموحى فعلا .

ـ لا ، بس انت خليها فى دماغك .

ـ ٧ ـ

أدرت المفتاح فى الباب ولم ينفتح ، عرفت أنه مغلق من الداخل، دققته بكفى ثم كررت ذلك ، مرت بضع دقائق وأنا أنتظر دون جدوى ، فأعدت دق الباب ، سمعته يرد بنرفزة :

« طيب .. طيب » . بعد لحظات جاء يسأل بنبرة تنم عن

القلق :

ــ من • ؟

ــ أنا كمال •

فتح وهو يتكلف الابتسام وقال : لقد ظننتك جابر شـيخ الخفر •

كان مرتبكا الى حد ما ، لاحظت ذلك فى ملامحه والطريقة التى يتحدث بها • ثم لمحت فى الداخل امرأة ، تغسل الأطبـاق وهى جالسة القرفصاء ، رأيتها من ظهرها ، لكننى عرفتها وسارع هـو فقال :

ــ مادمت تقرف من سعاد المجنونة تبقى الصحون يغسلها العاقلون

دخلت الغرفة وكلماته عنها تطن فى ذاكرتى ، انبعثت فى مخيلتى صور شيطانية فاستغفرت وقلت لنفسى :

ــ « ان بعض الظن اثم » • واستأنف كلامه عن سـعاد قائلا :

ــ « غريبة أنها تختفى هكذا •• تصدق أنها أول مرة تعملها •• الخوف أنها تكون عملت فى نفسها حاجة ، ترمى نفسها تحـت القطار أو فى البحر » •

توقف عن الحديث موجها الى نظرة ثاقبة وسألنى :

ــ مالك ياكمال ، سرحان فى ايه • ؟

ــ هه ، لا أبدا •

فى هذه اللحظة وقع بصرى على شعرة سوداء طويلة جدا ، رأيتها على وسادتى فتأكدت أن ظنونى فى محلها ، غلى الدم فى عروقى ويبدو أن ملامحى كانت تكشف له عن أعماقى الثائرة فنـادى

عليها :

ــ بنت يا أم دعبس ، تعالى لكى تسلمى على بلدياتك •

ــ ياه : بقى هو كمال أفندى ليس من مصر •

قالتها بميوعة فرد عليها : أنه بلدياتك •• من بنها ، تعــالى • وغمز لى وهو يبتسم بخبث •

فتملكنى الغيظ وقلت فى نفسى :

ــ يا ابن الملعونة •• على طول عملتنى بلدياتها •

دخلت تتصنع الحياء وقالت بشىء من التبجح :

ــ الا انت صحيح من بنها •؟

ــ انتى من بنها • ؟

ــ أى نعم •

ــ طيب ياحلوة ، لا تنسين شعرك على السرير مرة ثانية ، أحسن عيب •• عيب خالص •

أعطيتها الشعرة واحساس بالقرف يملؤنى فاحتقن وجهها بالدم ودارت خجلها قائلة :

ــ من شعرى أنا •• !

ورد الذئب مهونا : يا أخى أصلها كانت تنفض الفرش •

ــ والله يا سيدى أنا لم أطلب من أحد أن ينفض لى •

ــ على العموم ، أنا الذى طلبت منها •• لم أكن أعــرف أنك « إنف » الى هذه الدرجة •

قالها بشىء من الدهاء محاولا تهدئة الموقف ، بينما انسحبت هى فى صمت لتكمل غسل الأطباق ، اقترب منى وقال بصوت منخفض

مغلف بثوب النصيحة :

أهكذا تكسفها بدلا من أن تشكرها ، انك لا تعرفها .. انها طيبة وبكلمة حلوة نكسبها .. نحن في احتياج ..

ـ تكلم عن نفسك .

ـ نعم أنا في احتياج اليها ، بل أحبها وهي أيضا تحبني ، لكنها ليست ساذجة كما تتصور ، هي تعرف أن زوجها على حافة الموت وان سلمت نفسها لي فلن أرغب في الزواج منها بعد ذلك .. فهمت هي ليست عبيطة .

وظل يرص كلاما كثيرا لم أسمعه لأني كنت في دوامة : هل أثور عليه وأحذره من تكرار هذا البغاء .؟ بامكانه أن يطردني فأين أذهب ؟ لكنه يخدعني ويستغفلني .. لا يجب أن أتستر عليهما .. قد تكون فضيحة « تنبهت على صوته يناديني لتناول الغداء ، كان يضع اللمسات الأخيرة للأطباق المتنوعة » . رفع ناظريه الي وهو يصفق على طريقة أعياد الميلاد قائلا :

ـ حتة أكلة بقى .. تأكل أصابعك وراءها .

ـ كل انت ، أنا عندي مشوار .

ـ طيب نأكل وبعدين تروح مشوارك .

ـ لا ، أنا خارج وكل انت .

ـ تعال والأكل ساخن ، يا أستاذ كمال ، خذ . اسمع ، تعال بس . .

ـ ٨ ـ

على ناصية الشارع رأيت دعبس يلعب مع رفاقه ، ناديته

وسألته عن أبيه فقال : راح لعمتى فى مصر جذبتنى نبضات سريعة منتظمة تنبعث من صهريج المياه : « طق ، طق ، طق » وأصـوات النسوة تمتزج بخرير الماء وصوت ارتطامه بقيعان الفناطيس « تحسرت على الأرض السمراء التى تفقد عذريتها وتستغيث مـن الطوب الأحمر والأسمنت وأكوام الزلط والرمل فترمى كل خصوبتها فى « كدية » حشيش وعود سيسبان وشجرة خروع • مشيت على الطريق الترابى الممتد الى خارج القرية ، كان الجو خريفيا جميلا ، سرت تحت أشجار الصفصاف الظليلة ، الحقول على يمينى والترعة الصغيرة والطريق الزراعى على يسارى والفلاحون قد ركنـوا الى الراحة ، منهم من أسند ظهره الى جذع شجرة وجلس ينظر بارتياح للماء المتدفق يروى ظمأ زرعه ومن تمدد على الأرض وراح يغط فى سبات عميق نافخا صدره بكل اطمئنان ، ومن جمع حوله أسـرته كبيرة العدد لتناول طعام الغداء بنوع من الألفة لا مثيل له • عبرت الترعة الصغيرة الى الطريق الزراعى والسكة الحديد ثم الى الترعة الكبيرة متجها صوب عيون « أبو الأخضر » • كانت البوابات عالية والماء يقفز من فوقها ويتساقط بشدة فيكتسب لونا ثلجيا ويهـدر بصوت يشبه ارتطام الأمواج • اخترت مكانا فى ظل شجرة كافور ، فردت منديلى على الأرض ، لمحت شيئا « غائما » يتكور ، كانت نائمة ثم اعتدلت وأخرجت شيئا من صدرها يشبه المنـديل ، ذهبت اليها ، سمعتها تحدث نفسها بصوت مسموع ، رأيت فى يدها صورة صغيرة تنظر اليها وتكلمها ، سألتها : « صورة مـن هذه ياسعاد » ؟ أخذتها المفاجأة ، حملقت فى طويلا زاغت ببصرها

بعيدا ثم وقفت تنظر فيها بجنون : حسن ياحبيبى ، حسن ، ياحسن، رد على ياحبيبى ..

ــ أرينى هذه الصورة .

ــ لا .

قالتها بصوت مرتفع يشوبه الفزع ولفتها بسرعة فى خرقة من القماش ثم وضعتها فى صدرها ، تقدمت منها قائلا :

ــ خائفة منى ياسعاد . ؟!

تراجعت وانطلقت تعدو بشىء من الهلع ، جلست أفكر فى أمرها بشىء من الأسى : « مسكينة تعيش فى عالمها الصغير ولا أحد يشعر بمأساتها » .

ــ غريبة انك هنا يا أستاذ كمال .

التفت فوجدته صلاح مدرس الرياضيات ، كان يركب حمارا قوى البنيان ، يرتدى جلبابا ناصع البياض ، على عينيه النظارة السميكة ، وفى يده شمسية خضراء ، نزل عن مطيته ، فقمت اليه : « أهلا » « أستاذ صلاح » . صافحنى بحرارة وقال وهو يبتسم : « يظهر أنك شاعر ونحن لا نعرف » .

ــ لا ، أبدا .. المناظر هنا خلابة فعلا ، لكننى كنت أفكر فى هذه الفتاة البائسة .

ــ سعاد .. رأيتها عن بعد وهى تحدثك ويظهر أن كلامك لم يعجبها .

ــ أعتقد أنها اصبحت لا تثق فى أحد .

ــ الحقيقة .. هى صعبانة علينا ، لكن نعمل ايه .. العين بصيرة

واليد قصيرة .

لا نملك أن نفعل لها شيئا ..

ــ لماذا .؟

ــ كل واحد يريد أن يعيش .. أنا مثلا ورائى أخوتى الأصغر منى وزوجتى وطفلتى أريد أن أربيهم وأعلمهم وليس عندى استعداد لتكوين عداوات .

ــ طيب وهذه المسكينة .. دم زوجها يروح هدرا .! ؟

ــ يا أستاذ كمال المفروض أن البلد فيها حكومة وقانون واذا فشل المسئولون عن تطبيق القانون فهذه قضيتهم و ...

ــ لا يا أخ صلاح أنا لست معك فى هذا .. لعن الله قوما ضاع الحق بينهم .

ــ وهل هناك لعنة أكثر من أن يأكل الناس بعضهم مثل السمك .. هيا بنا .

ــ الى أين . ؟

ــ الى البيت ، ألا تحب أن تعرف بيتى ؟.

ــ يسرنى أن أعرفه .

ــ اذن هيا بنا .

ركبت خلفه وانطلق بنا الحمار نحو القرية ، بينما استطرد صلاح :

ــ نصيحتى لك ياكمال .. لكى تعيش هنا ، خليك فى حالك .. ولا لك دعوة بحد ولا محتد .. أنا نفسى متبع هذا الأسلوب .

ــ طيب •

قلتها وأنا شارد مع أفكارى ، لكنه واصل حديثه فسألنى :

ــ أنا دريت أنك سكنت مع مجدى كاتب الجمعية ••• صحيح • ؟

ــ نعم ، هل تعرفه •؟

ــ أقدر أقول لك انى كنت أول واحد يصاحبه هنا فى البلد •

ــ كنت •؟ يعنى علاقتك به لم تستمر لليوم •؟

ــ تقريبا •• وهذا يرجع الى أنه « خلنجى » ولا تهمه الا مصلحته •

ــ أنت طبعا عارف أنه كان متهما أو واحدا من المتهمين بقتل زوج سعاد •• فايه رأيك • ؟

ــ مجدى كان مظلوما •• هو صحيح أهوج ومراهق فى بعض تصرفاته انما ليس من النوع الذى يقتل •

ــ طيب اذا كان بريئا فلماذا اتهمته سعاد •؟

واحدة فى مثل حالتها كانت تتصرف بطريقة عشوائية وبديهى أن شكوكها لم تكن فى محلها •

مرت لحظات من الصمت وأنا أفكر فى كلامه وأشعر باطمئنان وقد بدأت صورة مجدى تتحسن فى ذهنى •

ــ ٩ ــ

طبقت الفوطة قائلا : سفرة دائمة يا أستاذ صلاح •

ــ لا ، انت يظهر ان الأكل لم يعجبك •

ــ الأكل جميل جدا والحمد لله •

ـ طيب ياسيدى .. بالهناء والشفاء .. تستطيع أن تغسل يديك على الحنفية الموجودة خارج الغرفة .

كانت عبارة عن برميل كبير فى أسفله حنفية من النحاس الأصفر، موضوع على منضدة خشبية وبجانبه قطعة من الصابون المعطر ، تحت الحنفية صفيحة فارغة وعلى الحائط شماعة بها فوطة زاهية الألوان ، كان الشاى جاهزا فشربناه وطلبت منه أن نذهب الى النادى الذى حدثنى عنه أثناء تناول الغداء ، فنظر فى ساعته وقال :

ـ نعم .. الوقت مناسب ، هيا بنا .

مشينا فى الحوارى القذرة والأزقة الرطبة ، معظم البيوت واطئة طينية دون طلاء ، أكوام الحطب تطل على الجانبين من فوق الأسطح وتتدلى فوق رءوسنا .

وصلنا الى الجانب الشرقى من القرية ، فظهرت لافتة بيضاء مكتوب عليها بخط أسود :

« نادى شباب كفر الغنيمى » .

اللافتة مثبتة أعلى باب قديم يحمل بقايا طلاء أخضر ، الباب مفتوح على مصراعيه ، كانا يلعبان الطاولة ، التفتا لحظة دخولنا ، اتجهنا اليهما كأن موعدا يربط بيننا :

ـ « مساء الخير .. أقدم لكما الصديق كمال توفيق .. مدرس تاريخ » ، وأشار الى أكبرهما سنا : الأستاذ محسن .. فنون جميلة .. وهذا فيلسوفنا الأستاذ عامر ، ليسانس حقوق تبادلنا كلمات الترحيب وجلسنا نتابع رمى الزهر وحركة القواشيط :

ـ شيش ، بيش .. بالسلامة .

ـ دورجى ، أهلا ، أهلا .

ـ جهار ، سيه .

ـ لعبة جميلة .. الله ، الله .

ـ جهار ، دو .. طيب .. الجهار ممسوكة .

ـ بانج ، سيه .. تمام ، ياسلام .

ـ ياولد .. على الدوسة الجميلة .

ـ اطلع .. هبيك .. اطلع

ـ يعنى السيد عطوة تأخر يا أبا الصلح . !

قالها محسن وهو يضرب القشاط فى خشب الطاولة بعنف .

ـ يسكن ربنا فتح عليه بقصيدة جديدة .

ـ وتلاقيه نازل نحت فى قوافيها بيديه وأسنانه .

ـ دوبارة .. فك وارحل ياحبيبى .

ـ طيب ، اثنان باثنين .. العب .

ـ شيش ، بيش .. ياسلام .

ـ ليتنا افتكرنا حاجة حلوة .

استدار صلاح الى قائلا : هذا .. شاعرنا السيد عطوة .

كان شابا يافعا ذا وجه شاحب ، يرتدى بنطلونا رماديا وقميصا باهتا لا لون له ، ويضع تحت ابطه مفكرة كبيرة ذات غلاف أحمر .

دخل يهز رأسه ويصفر بأسنانه البارزة قليلا :

ـ يامساء الفل والريحان .

مد يده يصافحنا جميعا ثم سحب كرسيا وجلس وهو يفتح المفكرة قائلا :

ـ فى جعبتى اليوم أكثر من قصيدة ، اسمعوا .. هذه قصيدة بعنوان « لحظة يأس » .

ـ ياساتر .. اكفنا الشر يارب .

قالها عامر طالب الحقوق بنبرة ساخرة وكانت ملامحه تثير الضحك خاصة وأن لحيته الطويلة لا تتفق مع طابع المرح الواضح فى بريق عينيه وابتسامته العريضة .

ـ لا .. أرجوكم ، اسمعوا أولا .

قالها باهتمام وجعل يقرأ شعره المكسور :

تقلصت رعـدا وبرقـا   وامتلأت بالغيوم السوداء
وانفجر السحاب أمطارا   تبذرها الرياح الهوجـاء
وأقبل الليـل كئيبـا   يتلصص بخبث ودهـاء
واشتدت العواصف والبرد   يلحس أجسام الضعفاء

ـ بس .. كفاية وأوأة .!

كان عامر يمسك دماغه كأن صداعا يؤلمه ، ورد محسن بنبرة خطابية :

ـ الليل ، السحاب ، الرياح .. ايه ، امرؤ القيس انت ؟!

فكان يبدو كمن يترأس مظاهرة ، خاصة وأنه بارز فى المجموعة كلها بقميص مشجر ذى لون صارخ . نظر لهما بشىء من الحيرة وفى ملامحه مزيج من الغضب والخجل ، لكنه قبل أن ينطق بكلمة قال له عامر :

ـ يارجل يامفترى .. أهذه كلها لحظة .. قال ايه : لحظة يأس ..!

قال العبارة الأخيرة وهو ينظر الينا متعجبا ثم التفت الى سيد عطوة مؤنبا : وجعت لنا دماغنا والأسبرين غال •

ــ أهكذا يا عامر ..!

ــ حرام عليك يارجل .. دماغنا متكلفة •

نظر الى بشيء من الأمل فى انصافه وسألنى :

ــ مارأيك يا أستاذ ؟ •

ــ الحقيقة ، أنا لست ناقدا •

ــ لكنك مثقف ولازم لك رأى •

ــ من خلال قراءاتى أعتقد أنه شعر مكسور ولم تحسن اختيار موضوع القصيدة •

ــ ينصر دينك يا أستاذ كمال •

قالها عامر باهتمام كأننى قلت شيئا خطيرا وأيده محسن :

ــ ياسلام ، شوف .. شوف الناس التى تفهم •

ولكنى أعتقد أيضا أنها بداية جيدة للشاعر سيد عطوة •

ــ طيب .. اسمعوا قصيدة أخرى •

قلب صفحات المفكرة بسرعة واستأنف :

ــ اسمعوا .. هذه قصيدة بعنوان « التاريخ عندما يعيد نفسه » •

ــ بس .. أول القصيدة كفر •

ــ طيب ، والله العظيم .. لن أقرأها .. لكى تنبسط ياعامر .. وأنا عارف ان هذه غيرة وحقد لأنك تعجز عن كتابة بيت واحد من الشعر •

ـ ها ، ها .. يارجل حرام عليك ، أتسمى ماتكتبه شعرا .
ـ ياجماعة ، اشهدوا عليه لأنى بعد ذلك سأضربه .
ـ تضربنى ..! ها . هاها .. ارم الزهر يامحسن .. نلعب أحسن مادام فيها من ضرب .
ـ اقرأ لنا القصيدة ياعطوة .
ـ لا ياصلاح ، أنا خلاص حلفت .
ـ تعرف ياعطوة ، ان الأخ عامر معه حق .
ـ يا أستاذ كمال ، أنا لم أقرأ القصيدة بعد .
ـ ألم تقل : التاريخ يعيد نفسه . ؟
ـ هذا عنوان القصيدة فقط .
ـ ولكنه خطأ .. لأن التشابه بين بعض الأحداث لا يعنى أن التاريخ يعيد نفسه وهذا المفهوم الرجعى المتشائم لا يناسب هذا العصر لأن عجلة التاريخ لا تسير الى الخلف .
ـ لكنى أذكر أنى قرأت ذلك .
ـ نعم .. كانت نظرية قديمة ، لكن لو أنك قرأت لمفكر مثل أرنولد توينبى .
ـ توينبى ؟.
ـ نعم ، انه مؤرخ وفيلسوف بريطانى معاصر .
ـ وماذا قال عن التاريخ ؟.
ـ قال : ان التاريخ يسير فى دوائر تدور حول نفسها بطريقة حلزونية .
ـ وماذا يعنى بهذه الدوائر . ؟

ـ انه يرى أن لكل حضارة بداية ثم اكتمالا ثم نهاية وكثيرا ما تكون نهاية حضارة ميلادا لحضارة جديدة أكثر تقدما منها .

ـ ١٠ ـ

فرشت الجريدة على الطبلية وجلست أحضر حصص اليوم التالى بينما انشغل مجدى فى تنظيف النارجيلة ثم أشعل وابور الجاز ووضع فوقه غلاية الشاى ، قام فأحضر الكوتشينة التى انهمك فى تفنيط أوراقها مرددا وهو يهز رأسه بنوع من النشوى : زينة ، زينة ، زينة ، يازينة يازينة .

وضع الكوتشينة جانبا وقال : بعد ماتخلص كتابة ، نلعب لنا عشرة .

ـ الحق الشاى فار .

سارع باطفاء الوابور وبدأ يصب الشاى ثم أخذ رشفة وقال :

ـ الله ، شوية شاى .. انما ايه .! عجب .. !

لم يكد ينتهى من كلمته حتى دق الباب ولما فتحه دخل شاب طويل القامة ، يرتدى جلبابا لا لون له ، فى وجهه بعض الكدمات وفى جبينه ندبة غائرة ، اندفع نحو الكنبة وهو يلهث مرددا بشىء من الهلع : خبئنى ، خبئنى .

فتح جانب الكنبة التى هى فى الحقيقة سحارة طويلة ونام بداخلها .

فسأله مجدى : أين كنت ياولد يانسر . ؟

ـ فى البيت .

ـ أهى الكبسة . ؟

ـــ نعم ، لكنى قفزت من فوق الأسطح ونزلت فى الحارة •
ـــ ألم يرك أحد • ؟
ـــ لا ، اطمئن •
ـــ أنا ، عارف انك ستضيعنى معك يانسر •
ـــ لا تخف ياسى مجدى •
ـــ ولم لم تذهب الى بيت جابر أو المعلم بدوى ؟
ـــ هنا أمان •
ـــ يعنى ناس تأكل البلح وناس تحدف بالنوى ؟

فى هذه اللحظة سمعنا دقات على الباب ، خفق قلبى بشدة وبدت الحيرة والقلق على ملامح مجدى الذى تلفت بارتباك مثل نمر فى قفص • مال نحوى وقال محذرا وأصبع سبابته على فمه :

ـــ اسمع ، لا أحد هنا •

كان الطرق سريعا قويا ، وقف مجدى خلف الباب وقال بشىء من الخوف :

ـــ من بالباب • ؟

فرد عليه المعلم بدوى بنوع من الضيق : افتح ياتيلة •

ـــ أدخل يا أخى نشفت دمى •

كان مضطربا ، ينفخ بغيظ ويشيح بيده فى الهواء مرددا :

ـــ هذه مصيبة ، كارثة •
ـــ مالك يابدوى ، حصل ايه •؟
ـــ النسر ، النسر وقع •
ـــ من الذى قال لك •؟

ــ رأيت « البوكس » بنفسي ، أخذوه ..
ــ ولد يانسر .
ــ آيوه ياسى مجدى .
قالها النسر من داخل السحارة فتهلل وجه المعلم بدوى وسارع بفتح جانب الكنبة السحارة : اطلع يانيلة ..
قهقه النسر فى سعادة كأنه لم يكن طريد البوليس منذ لحظات ، وقف يصفق بيديه ويهتز مترنحا مثل السكير ثم قال :
ــ افرض يامعلم النسر وقع بصحيح .. تعمل ايه ؟.
ــ اسكت يانسر ، أنا بيتى كان زمانه خرب .. طول ما العملية الكبيرة ..
سكت وهو يرمينى بنظرات الشك والتوجس فرد عليه مجدى :
ــ هو من يامعلم ، النسر ابن حرام ، عمره مايقع .
وفى هذه اللحظة دق الباب ثانية فتملكهم الفزع واندفع النسر الى مخبئه مثل الأرنب ثم قال مجدى بصوت جاف : من ، من بالباب . ؟
ــ أنا جابر ياسى مجدى .
ــ معك من ؟.
ــ افتح ، أنا وحدى .
وقبل أن يخطو بقدمه سأل : « النسر هنا . ؟ » وجاء الرد بصوته من باطن الكنبة : أتريدنى ياعم جابر ؟ .
ــ تعال يا ابن الـ ... أنا الذى أنقذتك الليلة ، لو لم أضلل القوة لكنت الآن مكلبشا بالحديد .

ــ أنا أول ما لمحتهم داخلين الشارع ، أخذتها قزح من فــوق الأسطح ونزلت فى الحارة •
ــ براوة عليك ياولد يانسر •
ــ كانت تبقى مصيبة لو النسر وقع والعملية ماتمت •
ــ الليلة تقطعوا عرقا وتسيحوا دما •
ــ يبقى أنت ياجابر تفهم النسر بالخطة كلها •
ــ ليس الآن •
قالها وهو يغمز بعينه اليسرى ويومىء برأسه مشيرا الى ، فلما لحظ أننى رأيته ابتسم وقال بنبرة خبث :
ــ أهلا يا أفندى ، انت منور بلدنا •
ــ شكرا •
ــ. ياللا ياسى مجدى ، وضب لنا القعدة ، هات الكوتشينة ، تعال يا أفندى ، تعال ، أنا أريد أن ألعب معك •
ــ لا ، أنا لا ألعب الكوتشينة •
ــ لماذا • ألست رجلا ولا مؤاخذة •؟
ــ وما دخل الرجولة بالكوتشينة •؟
ــ الرجل لا يخشى الهزيمة •
ــ أنا ألاعبك ياجابر ، الأستاذ كمال ليس له فى الكوتشينة •
ــ كيف • ؟ لا ، سيلعب ، وأنا نفسى أجرب لعب الأفندية •
ــ انه لا يعرف •
ــ عن اذنكم ، أريد أن أنام •
ارتسمت على شفتى جابر ابتسامة باهتة ولمع فى عينيه الغائرتين

بريق مخيف وقال بارتياح :
ـ أهكذا ؟. خلاص .. سماح النوبة ، وأحلاما سعيدة .

ـ ١١ ـ

اشتريت حاجياتي من سوق القرية أو « السويقة » كما يسمونه ، وهو مجموعة من بائعات الخضر والفاكهة يجلسن على الأرض بجوار سور جامع سيدي الغنيمي .

ذهبت الى البيت ، فغيرت ملابسي وبدأت في اعداد طعام الغداء، بينما كنت منهمكا في تقشير البطاطس ، دخل مجدي فقال باستغراب :

ـ يظهر انك طباخ ممتاز .
ـ للضرورة أحكام ياصاحبي .
ـ سأغير ملابسي لكي أساعدك .

ومن داخل الغرفة قال : يا أخي .. البنت سعاد اختفت مرة واحدة .

ـ أنا على فكرة ، نسيت أقول لك اني رأيتها بالأمس .
ـ رأيتها . ! أين . ؟
ـ على شط الترعة الكبيرة ، عند عيون « أبو الأخضر » .
ـ ألم تقل انك كنت مدعوا للغداء عند الأستاذ صلاح .
ـ هه .. نعم ، نعم .. لم يكن الوقت قد حان فتمشيت الي العيون ورأيتها هناك .
ـ حاجة غريبة .. ماذا كانت تفعل هناك .؟ ألم تحدثها ؟.
ـ لا .. لكن ماهو سر اهتمامك بها هكذا ؟.

ـ الا ترى أنها تستحق الشفقة والعطف ..!

ـ يجوز .. لكنك تهتم بها أكثر مما يجب .

سكت برهة ثم خرج وهو يكمل ارتداء الجلباب :

ـ قلت لك من قبل .. سعاد فيها شيء لله .

قالها وجلس يشعل الوابور ، لكنى لم أقتنع :

ـ أنا سمعت أنها اتهمتك بقتل زوجها .

ـ آه .. حصل .

قالها وهو يفكر مقطبا مابين حاجبيه واستأنف :

ـ لكنها لم تتهمنى وحدى .. اتهمت كل أصدقاء زوجها .. وأنا واحد منهم .

ـ وايه الدافع وراء اتهامها لك ..؟

ـ أصل الحكاية ان البلد كانت فيها راقصة اسمها « سندس » .. وكنت أنا والأسطى حسن زوج سعاد نسهر عندها .. وطبعا سعاد حاولت أن تمنع زوجها من الذهاب معى ففشلت وأحست أننى السبب فكرهتنى .. وهذا ماجعلها تتهمنى .

ـ واضح أن علاقتك بزوج سعاد كانت قوية جدا .

ـ الاسطى حسن .. ونعم الصديق ، كان رجلا بمعنى الكلمة .

ـ لو أن سعاد اتهمتك بسبب الكراهية يبقى كان من باب أولى أنها تتهم « سندس » ..!

ـ لا .. لأنها تركت البلد قبل موت الأسطى حسن .

خيم الصمت لحظات ، انشغل هو فى تقليب البطاطس ، وبدأت فى تقطيع الطماطم لعمل السلاطة ولكنى كنت أسترجع كلامه وأفكر

كثيرا فى قوله : سعاد فيها شىء لله • ثم سألته :

ـ مجدى •• هل تعتقد أن الأشخاص الذين اتهمتهم سعاد كلهم أبرياء • ؟

ـ تحريات البوليس وتحقيقات النيابة أثبتت ذلك •

ـ لا •• أنا أسألك عن رأيك الشخصى •

ـ رأيى • ؟ نعم كلهم أبرياء •

ـ لا ، أنت لا تقول الحقيقة •

ـ لماذا • ؟

ـ لأنك اعترفت ضمنيا بجزء من الحقيقة •

ـ كيف • ؟؟

ـ ألم تقل عن سعاد : « فيها شىء لله » • ؟

ـ نعم •

ـ ومعنى ذلك أن الله قد وفقها فى معرفة الجانى وكان واحدا من المتهمين وبالتالى فأنت تعرفه بحكم الصداقة التى كانت تربطك بالأسطى حسن •

التفت الى وعلى شفتيه ابتسامة وقال :

ـ هل كنت وكيل نيابة قبل ذلك •

ـ أرجوك يامجدى ، قل لى الحقيقة •

ـ وايه الفائدة •؟

ـ لكى أستريح •

ـ الحقيقة مرة ياكمال ••!

قالها بأسى والدمع يبرق فى عينيه واستطرد :

ـ سعاد اتهمت شخصا واحدا وبقدرة قادر تحول الى خمسة لتضليل العدالة وكنت واحدا منهم ٠

ـ كيف حدث هذا ٠ ؟!

ـ لا أعرف ٠ كان كل همى هو الدفاع عن نفسى ٠

ـ اذن فأنت تعرف القاتل ٠٠ !

ـ عرفته بعد ذلك ولم أكن أستطيع تغيير أقوالى ٠

ـ ومن هو القاتل ٠؟

ـ من الخير لك ألا تعرفه ٠

— ١٢ —

كتبت خطابا لأخى أطمئنه فيه على صحتى وحياتى الجديدة فى « كفر الغنيمى » ٠

وسألت مجدى : ما اسم هذا الشارع ٠؟

ـ هنا ٠٠ الشوارع ليس لها أسماء ٠٠ أكتب العنوان على المدرسة أضمن ٠

ـ وهو كذلك ٠٠ هه ، أخى العزيز : يمكنك مراسلتى على ٠٠

ـ انظر ٠٠ أبو دعبس جاء ومعه ايه ٠ ؟ يا أبا دعبس ، خذ ٠٠ تعال ٠

ـ نعم ياسى مجدى ٠٠ السلام أولا ٠

كان يرتدى جلبابا جديدا ، على وجهه غبار السفر ، يعلق فى كوعه الأيسر سلة فارغة ويمسك سلسلة مربوط فيها كلب صغير أبيض ، تتدلى أذناه على جانبى رأسه ، سأله مجدى بشىء من الخبث والرغبة فى المزاح :

ـ الله ..! ماهذا .؟ ذكر ولا أنثى .؟

ـ أنثى . وهادئة بشكل غريب ، وضعتها فى السلة وغطيتها بورقة جريدة فلم تتحرك من مصر لحد هنا .

ـ أيوه ياعم ، لكى تأتى لك بذرية صالحة .!

ـ أتهزأ بى .. ؟!

ـ لا صحيح .. أنت ممكن تكسب من خلفتها .

ـ وبعدين معك بقى ياسى مجدى .

ـ يا أخى الرجل غير مصدق .

ـ ولا مؤاخذة يا كمال أفندى .. صاحبك أخذنى فى «دوكة» .. كيف حالك .؟

ـ الحمد لله .

ـ يعنى من ساعة ماكنا مع بعض لم تسأل .!

ـ لا ، أنا سألت عنك أمس وعرفت أنك فى مصر

ـ سألت عليك العافية ، والنبى انت ذوق ياكمال افندى .

ـ ياراجل كفاية بولتيكا .!

ـ أبدا والله ياسى مجدى .. الأستاذ كمال ابن أصول بجد .

ـ الله يكرمك ياعم أبى دعبس .

ـ ان شاء الله تشرفنا الليلة ، فيه موضوع بودى أكلمك بخصوصه .

ـ حاضر .

ـ يحضر لك الخير .

ـ اسمع يا أبا دعبس ، خلينا فى الجد ، البيضاء .. أسميتها

ايه ؟

ـ والنبى انت فائق ورائق .. السلام عليكم .

قالها وهو يشيح بيديه واستدار خارجا ، لكنه تذكر شيئا فرجع .

يسأل مجدى : الا ، قل لى .. انتم صرفتوا الكيماوى ؟!

ـ بدأنا فى صرفه اليوم فقط .

ـ وسعر القطن الجديد ، ظهر ؟

ـ أتريدون أن تنهبوا ؟ ألا يكفيكم أن الحكومة أعفتكم من نصف تكاليف مقاومة الدودة ؟

ثم التفت الى وقال : « الغريبة يا أخى ان الفلاح منهم يريد أن ينام فى الظل والجمعية تحلب الأرض وتعطيه » .

ـ نحن الخير والبركة على كل حال .

ـ ياشيخ بركة ايه ؟ .. البركة من الله .

ـ طيب على كيفك ياسى مجدى .

وخرج لا يلوى على شىء فقال مجدى بصوت خفيض :

ـ رجل خانكة .. الله يكون فى عونه ..!

ـ أبو دعبس طيب وعلى نياته .

ـ ابن الـ .. ايه عنده حتة غزال ؟!

ـ وانت مالك ومالها .. خليك فى حالك واتق الله ..

ـ اسكت ياكمال ، اسكت ، أنا تحطمت فى هذا الكفر ، آمالى تبخرت وأحلامى تخلت عنى .

أشعر أننى أصبحت كهلا فى الستين أو السبعين .

ـ أنت أصلا من أين ؟.
ـ من سوهاج .
ـ ياه .! وماذا جاء بك الى هنا ؟.
ـ حسب رغبتى .
ـ لماذا ؟.
ـ بسبب عادة الثأر .. عندنا فى الصعيد ، اذا واحد غلط .. كل أفراد العائلة يتحملون غلطته ويعيشون مهددين ، جئت الى هنا منذ سنتين أبحث عن الأمان وأحلم ببنت الحلال والعش الهادىء ، لكن للأسف .! الناس ليس لهم شغله الا ترويج الشائعات والحديث بالسوء فى أمور لا تعنيهم ، وهكذا كلما تقدمت لخطبة فتاة ، أهلها يرفضوننى .. بسبب هذه الشائعات تحولت الى رجل سيىء السمعة . وهكذا تحطمت وانهارت أحلامى .
ـ لكنى أعرف أن أهل الصعيد يتزوجون فى سن مبكرة ؟.
ـ آه ، حصل .
قالها وتنهد بشىء من الأسى وأكمل : فى الصعيد تزوجت مرتين .
ـ ياخبر مرتين .؟!
ـ نعم ، كانت الأولى ابنة عمى ، أرغموها على الزواج منى وهى كانت تحب شخصا آخر فلم يحدث وفاق وطلقتها بعد شهرين .. والثانية ماتت بالسل .
ـ اكفنا الشر يارب .
ـ وطبعا من الصعب على رجل تزوج مرتين أن يصوم أو يغمض عينيه أمام الأنوثة والجمال .

ـ هل نسيت أن الله نهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؟٠
ـ أرجو أن تحتفظ بنقائك حتى النهاية ، أما أنا فلست ملاكا ٠
ـ ان أحدا لم يطلب منك أن تكون ملاكا ، والله اختار الأنبياء والرسل من البشر لكى لا تقول ذلك ٠
ـ احتفظ بكلامك لنفسك ٠
ـ أنت بتصرفاتك هذه تسىء الى سمعتى ٠
ـ اف ، هذه هى حياتى ، عاجبك تعاشرنى عاجبك ٠٠ كمال ، كمال ٠٠ خذ ، تعال ٠ انت زعلت ؟٠
ـ أنت مستحيل تكون من الصعيد ! ٠ أين شـهامة ونخـوة الصعايدة ٠ ؟
ـ حقك على ٠
ـ لازم تعرف ان كل حرية لها قيد ، فأنت حر فيما تفعل ، لكن من حقى أن أمنعك من الاساءة الى سمعتى ٠
ـ غصب عنى ، اعذرنى ، لا تدرى مدى ما أكنه لك من احترام ونفسى أبقى نظيفا مثلك ، لكن لا أعرف كيف ، فيه صوت جواى يصرخ ويقول : « كفاية عربدة ، كفاية ضلال ، لكنى لا أعرف ٠٠ صدقنى ، الشيطان جالس ومربع جواى » ٠
ـ لا يامجدى ، الشيطان هو جابر وشلته ، ابعد عنهم ٠
ـ أووه ، حاولت كثيرا ٠٠ كثيرا ٠
ـ حاول ثانيا وثالثا ٠
ـ صدقنى ، مع هؤلاء ، ليس لك خيار ، ان لم تكن صـديقهم فأنت عدوهم ٠٠ أنا أعرفهم جيدا لو أصبحت عدوهم فلن يهدأ لهم

بال الا اذا تخلصوا منى ، أبقى هربانا من دم وأقع فى دم ٠ ؟!
ـ لم أقل هذا ، انما أتركهم ولا تتعاون معهم ٠
ـ عارف لماذا أنا سكنتك معى ٠؟ ٠٠ لأنك ستحمينى منهم ٠
ـ أنا ٠ ؟
ـ قبل ذلك كنت وحدى أما الآن فعليهم أن يفكروا مائة مرة قبل ايذائى ٠
ـ أنت خائف منهم لدرجة الرعب ٠
ـ من خاف سلم ياكمال ، صدقنى أنا ٠

ـ ١٣ ـ

كان الباب مواربا ، طرقته وناديت : يادعبس ٠
ـ تفضل يا كمال أفندى ٠
سمعت صوته فدخلت واستقبلنى بحفاوة : يا أهلا وسهلا ، تفضل ٠
كانت القوالح قد تحولت الى قطع من الجمر ، فوضع غلاية الشاى فى وسطها وبدأ يحشو حجر الجوزة بالتبغ قائلا : يا ألف مرحبا ٠
ـ الله يرحب بك ٠
ـ ايه رأيك بقى يا كمال أفندى ٠٠ العيشة فى مصر أحسن ولا فى الأرياف ٠ ؟
ـ هنا الحياة لها طعم جميل بسبب المزارع والهدوء ٠٠ وبعدين القرية صغيرة وسكانها عددهم قليل وهذا يجعل التعارف سهلا والعلاقات بينهم قوية ٠

ـ بالضبط ، حضرتك لو سألتنى عن أى واحد أقول لك عليه .
ـ نكن الخدمات هنا سيئة .
ـ كيف ..؟
ـ يعنى مثلا الخبز فيه رمل .
ـ قلة ضمير بعيد عنك واهمال .. أصل الناس يخبزون ولا يعتمدون على العيش السوقى .. انتظر .. قالها ونهض خارجا كأنه تذكر شيئا هاما ثم عاد حاملا رغيفين وطبق بلاستيك ، فقدمها لى قائلا :
ـ ذق العيش « المرحرح » الذى نخبزه .
ـ أنا أكلت من دقائق فقط .
ـ وهل هذا أكل ، امسك .. انها لقمة خفيفة .
ـ طيب ياعم ، شكرا .
كان الطبق مليئا بالقشدة ، والخبز رقيقا ، فأكلت أكثر من نصف رغيف وقلت : الحمد لله .
ـ كل يا كمال أفندى .
ـ أكلت كثيرا ، اللهم أدمها نعمة واحمها من الزوال .
ـ آمين يارب .. هل أعجبك خبزنا .
ـ نعم ، جميل جدا .
ـ خلاص .. نخلى أم دعبس تخبز لك شوية .
ـ لا ، شكرا ياعم أبى دعبس .
ـ لا تعمل تكليفا .
ـ لا داعى تتعب الست أم دعبس وهى طبعا شغلها كثير .

ـ تعبك راحة ، هي ان كان عليها تحب الشغل .. تفضل الشاى.
ـ شكرا .

ـ أم دعبس ، أنا أخذتها طفلة .. وكانت قبل ما تنام املا حجرها كرملة وفول سودانى وبلح ، انما الحق .. هي من يومها « لهلوبة » فى الشغل ، ويمكن هذا هو السبب فى أنها كانت تجهض كثيرا فلم يعش لنا الا دعبس وزعبلة .

ـ ربنا يخليهما لك .

ـ الله يحفظك .

ـ لكن .. ألم تكن هناك أسماء أفضل من دعبس وزعبلة .؟

ـ دعبس فى شهادة الميلاد اسمه مصطفى وزعبلة اسمه عادل ، انما قلنا : لأجل يعيشا ومنعا للحسد .

ـ لكن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب منا أن نحسن اختيار أسماء أولادنا .

ـ بينى وبينك ، أنا كنت متلهفا للأولاد وأريد أن يعيشا بكل طريقة لأنى قبل أم دعبس كنت متزوجا من احدى قريباتى ، وكانت لا تنجب ومع ذلك عشت معها خمسة وعشرين سنة ولم أتزوج الا بعد وفاتها لأنى كنت أحبها كثيرا .

ـ قلت لى : ان هناك موضوعا تريد أن تحدثنى فيه .؟

ـ أى نعم ، وهو بخصوص ابنى دعبس .. فهو فى سنة رابعة ولا أراه يمسك كتابا وأريدك أن تختبره .

ـ حاضر .

ـ ياولد يادعبس .. هات كتبك وتعال .

كان فارع الطول مثل أمه ويحمل الكثير من ملامحها ، خصوصاً العينين الواسعتين ، جاء حاملا حقيبته المصنوعة من قماش أبيض ، ابتسم وقال : مساء الخير •

ـ مساء الخير ، تعال •• اجلس بجانبي •• ما اسمك •؟

ـ دعبس •

ـ لا ، اسمك الذي تقوله في المدرسة •؟

ـ مصطفى سليمان •

ـ هل تحفظ جدول الضرب يامصطفى •؟

ـ نعم •

ـ طيب •• قل لي ٦ × ٨ تساوى كم •؟

ـ تساوى ••تساوى ، ٣٢ •

ـ لا •• تساوى ٤٨ •• هات كتاب المطالعة •

أخرج الكتاب من حقيبته بكسل شديد فقلت له :

ـ اقرأ الصفحة الأولى •

ـ د • د • دعاء •• الـ •• الصباح •

ـ شاطر ، اقرأ •

ـ يارب •

ـ لا •• اللهم •

ـ اللهم •• ان •• انى •• آسأل • آسألك •

ـ أنت باين فى عينيك النوم ، اذهب الآن لكى تنام وغدا بعد ماترجع من المدرسة ، تغير ملابسك وتأكل ثم تأتى الى •

ـ ياكمال أفندى •• أنا عاجز عن الشكر •

ــ أعدك بأن مصطفى سيكون تلميذا نشيطا •• والآن اسمح لى أقوم •

ــ انت شرفتنا ونرجو أن زيارتك تتكرر •

ــ ان شاء الله •

ــ ١٤ ــ

كانت الطاولة مفتوحة ، لكنهم مشغولون عنها بالنظر فى الصحيفة ألقيت التحية وجلست ، كان يتحدث فاستمر يقول :

ــ ليس من المعقول أن نرفض وجود كائنات أعقل منا ولديها وسائل انتقال أسرع وأعظم من سفن الفضاء التى ••

ــ على مهلك ياحضرة الفيلسوف •• عن أى شىء تتحدث •؟

ــ ألم تقرأ ماكتبته « الأخبار » عن اختفاء طيار استرالى بعد مطاردته لطبق طائر •؟

ــ لا •

ــ اذن فاقرأ هذه السطور •

ــ ملبورن « استراليا » ــ وكالات الأنباء ــ فشلت الطائرات والزوارق الاسترالية فى العثور على أثر لطيار استرالى اختفى منذ أربعة أيام بعد أن أبلغ عن جسم طائر لا يعرفه يقوم بمطاردته •

ــ ها ، ما رأيك • ؟

ــ شىء عادى ، أذكر أننى قرأت عن طبق طائر نزل فى قرية برازيلية وخرج منه عدد من رواد الفضاء ــ سرقوا خمسة عشر دجاجة وستة خنازير •

ــ ها • ها ، لابد أنهم كانوا جائعين •!

ـ انها ليست نكتة •
ـ معنى ذلك أنهم جاءوا يلتقطون عينات حيوانية من الأرض ؟•!
ـ احتمال كبير •
ـ ياجماعة •• الأطباق الطائرة أصبحت ظاهرة علميــة لا يمكن انكارها •
ـ وكيف ننكرها بعد ماقاله عنها أينشتين أعظم علماء الرياضة فى كل العصور •
ـ أيوه ياصلاح ، أنا عارف انك معجب بأينشتين •
ـ انه كان يتحدث فى التليفزيون الأمريكى عن أصحاب الأطباق الطائرة فقال : لا أستبعد أن يكونوا أناسا عاشوا على الأرض من عشرين ألف سنة •
ـ ياه ! • عشرون ألف سنة • ! وهل هذا معقول ؟•
ـ على هذه الأرض لا •• أعتقد أن أينشتين مخطىء •
ـ بقى انت ياسيد ياعطوة تعرف أحسن منه •!
ـ بالقرآن يا أخى •• القرآن يؤكد وجود سبع أراضى مثــل الأرض التى نعيش عليها مما يستوجب أن تكون عليها حيــاة مشابهة لحياتنا •• ويتضح ذلك فى قوله تعالى :
« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » • (صدق الله العظيم) •
ـ لكن المخلوقات العاقلة لا توجد الا على أرضنا متمثلة فى الانسان •
ـ لا يامحسن •• الانسان صورة من صور المخلوقات العاقلة

لأن القرآن الكريم يتحدث عن وجود مخلوقات عاقلة •

ــ فعلا ، انما السؤال الذى يطرح نفسه ، هل هذه المخلوقات أعقل منا ؟

ــ بالتأكيد •• وهذا مادفع كارل يونج أعظم علماء النفس المعاصرين ــ لكى يبعد عنا المخاوف ــ يقول : كل عصر وله خرافاته وأن خرافة هذا العصر ••

ــ لا ، لسنا فى عصر الخرافات •• لا •

ــ ياسلام عليك ياعطوة ، انتظر يا أخى •

ــ يونج يقول : فى عصر انتشرت العفاريت والأشباح وفى عصر ظهر حجر الفلاسفة الذى يحول المعادن الى ذهب وفى عصر آخر نجد أكسير الحياة الذى يعيد الشباب أما هذا العصر العلمى ففيه خرافة الأطباق الطائرة •

ــ معنى ذلك أنها ظاهرة وقتية سوف تنتهى بعد فترة •

ــ لا ، لا : أحدث النظريات العلمية تقول أن الأساطير القديمة لم تكن من صنع الخيال لكنها تتحدث عن أشياء حدثت فى العصور القديمة •

ــ طيب ، معنى هذا أن كلام يونج غلط • !

ــ لا ياعطوة •• يونج نفسه اعترف بظاهرة الأطباق الطائرة ، لكن يظهر أنه بحكم مهنته أراد أن يريح الناس فقال : ان هذه الأطباق خرافة اخترعها العقل الانسانى لكى تريح الناس وتتجسد فيها أحلامهم ورغباتهم فى الهرب من الأرض وهمومها •

ــ وهل هذا معقول ؟ كيف يرتاح الناس أمام هذه العقول الجبارة القادرة على تحويل الأرض الى حقل تجارب •

ــ انها مهذلة .. مثلما الطيور والأسماك لاتفهم ماالذى نصنعه بها فكذلك نحن لا نعرف ماالذى يدور حولنا فى الكون الواسع .
ــ طيب ، ايه العمل لو نزل طبق طائر عندنا فى كفر الغنيمى .؟
ــ عجيبة عليك ياممدوح ، بقى الدول المتقدمة عاجزة آمام هذه الأطباق وتظن أننا يادولة نامية .
ــ لكن يا عامر ، مانراه فى حلقات « ستيف أوستن » « والبايونيك ومان » يؤكد أن أمريكا تستعد لمواجهة هذه الأطباق .
ــ يا أستاذ محسن ، هذه الحلقات من وحى الخيال .
ــ لكنها تعبر عن حقائق .. أو هى انعكاس للواقع .
ــ كيف ؟
ــ ايه رأيكم ياجماعة تتكلم عن مشاكلنا المحلية وبلا شىء من « اللغوصة » فى الأطباق والصحون .
ــ انها قضية العصر يا أستاذ صلاح .
ــ وليكن .. مشاكلنا أهم .
ــ أنا أضم صوتى لصوتك .
ــ عامر لو اتبعناه يوصلنا للالحاد أو الجنون .
ــ ويظل هو عاقل !.
ــ ها . ها ها .
ــ انتم أحرار .. ارم الزهر يامحسن .

ــ ١٥ ــ

لمحتها خارجة من عندنا ، كان مجدى يرتب الحجرة والعرق

يتصبب منه ، ذرات الدقيق تعلو ملامحه وتبدو على جلبابه الأخضر بوضوح ، أشار الى سلة الخبز قائلا :

ـ أحضرتها أم دعبس الآن .

ـ وهل كنت تساعدها ؟

تنبه ونظر في جلبابه ، نفض عنه الدقيق وأجاب :

ـ وضعت معها سلة الخبز فى هذا المكان ، لأنها كانت ثقيلة عليها .

ـ وطبعا كافأتك بقبلة طويلة .

ـ أنت ، تفكيرك شطح لبعيد قوى .

قالها بغضب وهو يرمقنى بنظرة حادة ، مد يده الى الشماعة فتناول جلبابا نظيفا وفوطة ثم خرج متجها الى الحمام ، غيرت ملابسى وأنا ألوم نفسى : « لقد تسرعت ، ماكان يجب أن أكشف عن أفكارى هكذا ، لكنى رأيتها وهى خارجة من هنا ، كان الدقيق يغطى كل ملابسها ولابد أنه احتضنها .. اللهم اخزك ياشيطان » .

جلست أقطع صينية الأرز ، فجذب انتباهى شىء وردى ملقى باهمال تحت السرير ، اقشعر بدنى ، تأكدت الآن من صدق احساسى ، غلى الدم فى عروقى ورددت فى نفسى :

ـ عمر ذيل الكلب ما يستقيم أبدا .!

جاء يصفر وهو يفرك شعره بالفوطة وقال بانتعاش :

ـ ياسلام .. الواحد جسمه فاق .

ـ من الزيلة .؟!

ـ تقصد ايه .؟

ـ أقصد هذا القرف .

ـ رأيته ؟. .. وايه يعني يا أخي !.

ـ ايه يعني ؟. صحيح ، ان لم تستح فافعل ماتشاء !.

ـ أستحي ؟. .. يعني ايه . ؟!

ـ فيه مبادىء وقيم لازم تراعيها .

ـ مبادىء ؟ وقيم ؟ ها . ها .. أنت طيب .

ـ هذه الكلمة تنرفزني .. بقى معناها : اني ساذج .

ـ لا ، انت غلطان ، أرجوك لاتحرف كلامي ، وخلينا أصحاب على طول .

ـ أصحاب ؟ وهل هذه أصول الصحبة ؟

ـ آه .. فهمتك الآن ، تغار مني وتريد أن تشاركني فيها .

ـ الحرامي يظن كل الناس مثله .

ـ اذن فأنت اما أن تكون مخصيا أو ..

ـ ياقذر ، احترم نفسك .

ـ ألست رجلا ، أليس لك شهوة ؟!

ـ لكني أتصرف بعقلي ولا أنساق لغرائزي بل أصبر حتى أستمتع بها في الحلال .

ـ ومتى يأتي هذا الحلال ؟

ـ وقت أن يشاء الله .

ـ آه ، بعد عشرين سنة ، على ماتحوش المهر الذي منه وساعتها تبقى على المعاش ، أنت متفائل .. صدقني ، أما أنا فاحيني اليوم وأمتني غدا .

ـ ستكون آخرتك سوداء .

ــ أترى هذا • ؟! خذ ، تعال •• الى آين ذاهب •؟

ــ ١٦ ــ

تسرب الصداع الى رأسى من ضجيج الطاولة وكثرة الأصوات المتداخلة :

ــ جهار ، يك •• حتى الزهر معاكس معى •

ــ لأنك مفتر ، أنت مفتر •

ــ دبش ، أمسكه •

ــ دورجى •• ضاعت ، ضاعت ياناصح •

ــ عامر خلى الطاولة مثل البيانو •

ــ صلاح فاكر انه يقدر على •

ــ صبرك يافيلسوف الغبرة •

فكرت فى الانصراف ، لكنى لمحت سيد عطوة ، دخل حاملا دفتر شعر والصحيفة اليومية ، ألقى التحية وجلس الى جانبى ، فأخذت منه الجريدة وبدأت أتصفحها •

ــ ماذا حدث ؟ أليس النقيب سمير هو الجالس هناك ؟

قالها سيد عطوة بصوت هامس مشيرا باصبع ابهامه إلى الركن الأيسر حيث يجلس شاب أسمر مفتول العضلات •

ــ لابد حاجة حصلت فى المركز •

ــ وحاجة خطيرة بالتأكيد •

ــ أقوم وأسأله ؟

ــ هل جننت ، ربنا يجعل كلامنا خفيفا عليهم •

ــ العب ياسيدى ، خلينا فى الطاولة •

ـ استعد ياكمال •• محسن لن يفلت من « المارس » •
ـ عطوة يلاعبك حتى انتهى من قراءة هذا التحقيق •
ـ اقرأه بعدين •
ـ لا ، انه تحقيق مثير •
ـ ياه •• عن ماذا ؟
ـ علماء أمريكا يكتشفون الذهب فى قاع المحيط •
ـ ياسلام •• هذه هى التكنولوجيا والا فلا •
ـ ونحن مازلنا مشغولين بالبحث عن نجوم الشاشة الفضية •
ـ الفقر له ناس « بالعنية » •
ـ الحاجة التى تغيظ وتفقع ان بلدنا كلها خيرات ، تصدقوا ان صحراء سيناء فيها مادة أغلى من الذهب •
ـ فيها ايه •• ماس ؟
ـ يورانيوم •• وعلماء الغرب يتوقعون أن تصبح مصر أغنى دولة فى الشرق الأوسط •
ـ لا ، الأعجب من هذا أن الصحراء الغربية فيها آبار بترول مردومة •
ـ مردومة •• كيف ؟
ـ عندما قامت الثورة وبدأت حركة تأميم الشركات الأجنبية ، حرق الخبراء الخرائط وردموا الآبار •
ـ الأدهى من ذلك أنهم يصطادون علماءنا •• هل نسيتم مافعلوه بالدكتور مصطفى مشرفة ؟
ـ عليهم اللعنة •

ـ على قدر ماعقولهم كبيرة ، على قد ماقلوبهم مليئة طمعا وأنانية.
ـ أما لو كل دولة كبيرة تطمع فى ثروات الدول النامية ربنا يسلط عليها طبق طائر يفتك بها .
ـ حيلك ، حيلك .. أتريد للعالم كله الدمار ؟
ـ والنبى يا محسن خليك واقعى وبلا شىء من الأحلام .
ـ أنا رأيى ان الأمل فى تكتل الدول النامية لمواجهة ..
ـ يا أستاذ كمال ، من أين يأتى هذا التكتل ؟ وكل حكومة تخاف من الأخرى ولا تطمئن لأية نوايا حسنة .؟
ـ آه .! للأسف ، مشكلة السلطة أبعدت الدول النامية عن بعضها البعض مع أن المصلحة واحدة .
ـ ياجماعة ، المشكلة تنبع أساسا من غياب الوعى .
ـ يا أخ عطوة .. الدول المتقدمة فيها السلطة للشعب ، والحكومة وظيفتها المحافظة على مصالحه ، انما فى الدول النامية ، الحال مقلوب .
ـ غصب عنها لازم تكون هكذا خوفا من الانقلابات ودسائس الدول الكبرى .
ـ الدول النامية فى حاجة لزعيم قوى .
ـ لو فيه وعى ..
ـ وافرض ياعطوة ان الناس عندهم وعى ، لكنهم جائعون .؟
ـ بس ، كان يبقى فيه مبادىء متفق عليها .
ـ يكون فى علمك ان الجائع لا يفكر فى حريته طالما يبحث عن رغيف ال ..

فى هذه اللحظة كان الضابط سمير يقف ورائى ، نظروا اليه وانعقدت ألسنتهم كأن على رءوسهم الطير .

ــ مساء الخير ياجماعة ، استمروا كما كنتم .

قالها وسحب كرسيا ، فجلس الى جانبى ثم طلب أن يقرأ برج الحظ فأعطيته الجريدة .

ــ جهار ، سيه .

ــ فك وارحل .

ــ دوبارة .. ياعينى على الحظ .

ــ هل قرأت هذه ..؟

قالها ومال نحوى هامسا : سأنتظرك بالخارج ، لا تتأخر .

ثم طوى الجريدة وقام شاكرا .

— ١٧ —

كانت هناك سيارة جيب خضراء داكنة تقف خلف النادى ، فتح بابها قائلا :

ــ تفضل يا أستاذ كمال .

ــ الى أين ..؟

ــ أحتاج الى مساعدتك ، اركب .

شعرت بالأمان فركبت وانطلقت السيارة ، علت شفتيه ابتسامة رقيقة ، كان يتمتع بقدر وافر من الوسامة . يقبض عجلة القيادة بقوة ، ويحرك معها ساعديه المفتولين بحيوية زائدة كأنه واحد من ابطال الأفلام البوليسية .

ــ ألا تعرفنى . ؟

هكذا سألنى والابتسامة لا تزال تعلو شفتيه ، فكرت قليلا ثم أجبت :

ــ ملامحك ليست غريبة على ، لكنى لا أذكر أننا التقينا ..

ــ اذن فقد نسيت زميلك .

ــ لكنى لا أذكر أننى ..

ــ ألم تكن فى مدرسة روض الفرج الابتدائية .. ؟

ــ نعم .

ــ أنا سمير عبد الكريم ، وكنت رئيسا لفريق كرة القــــدم بالمدرسة .

ــ فعلا ، تذكرتك الآن ، كنت تسبقنى بثلاثة أعوام ، ياه .. زمن . !

ــ فرحت كثيرا عندما علمت أنك تعمل هنا ، فأخيرا وجــدت الرجل الذى أثق به وأستطيع أن أعتمد عليه .

ــ أنا تحت أمرك وأشكرك على هذا الشعور الطيب .

ــ علمت أنك تسكن مع العربيد .

ــ قصدك مجدى . ؟

ــ أيوة ، قل لى ، أنت ايه رأيك فيه ؟.

ــ أعتقد أن كلمة عربيد هى أنسب وصف له وان كنت أشــعر أحيانا انه مسكين .

ــ لماذا . ؟

ــ انغرس فى الوحل وكلما حاول أن يتراجع انغرس أكثر .

ــ كيف . ؟

ــ ورط نفسه فى علاقات مع الأشقياء •
ــ أشقياء مثل من ؟
ــ المفروض أن حضرتك أدرى منى بهم •
ــ لا بالعكس ، أنت تعيش بينهم وتراهم عن قرب •
ــ لكنى لا أجالسهم وأقضى معظم الوقت فى النادى •
ــ المساعدة التى أطلبها منك أن تقترب منهم وتعرف الأعمال التى يفكرون فيها •
ــ تبقى حضرتك محتاج الى شرلوك هولمز •
ــ أنا شخصيا أحبه ، ومع ذلك لا أطلب منك أن تكون مثله ، فقط أريد أن تمدنى بما يتوفر لديك من معلومات بحكم وجودك بينهم •
ــ وافرض اننى لم آت للعمل فى هذا الكفر •؟
ــ هل تعنى أنك لن تساعدنى •؟
ــ أقصد لماذا لم تطلب من شبان النادى أن يساعدوك •؟
ــ انهم جبناء •
ــ أطلبت منهم فتقاعسوا •؟
ــ نعم •• بعضهم خاف وبعضهم تربطه بالأشقياء صلة قربى •
ــ وبعضهم يتهم رجال الأمن بالتقصير •
ــ لماذا •؟
ــ خذ مثلا قضية الأسطى حسن زوج سعاد المجنونة •• هل أنت مقتنع بتقييدها ضد مجهول ؟
ــ أحيانا يكون التقييد ضد مجهول من مصلحة القضية •

ـــ تقصد أنها خدعة • ؟
ـــ وايه المانع • ؟
ـــ هذا يجعلنى أشك فى سعاد •؟
ـــ من ناحية ايه • ؟
ـــ يخيل الى أنها ليست مجنونة •
ـــ اذن فأنت أخطر من شرلوك هولمز •• ها ها ها •

ـــ ١٨ ـــ

أحضرت لها رغيفا وثلاث قطع من السمك ، وضعتها فى حجرها:
ـــ خذى ياسعاد •
فتحت الورقة ، نظرت فيها وابتسمت : ربنا يخليك •
ـــ كلى ياسعاد •
كان مجدى يشعل النار فى المنقد ، تصاعد من القوالح دخان كثيف يلهب الجفون ويسيل الدمع :
ـــ كفاية دخان بقى يامجدى •
ـــ خلاص ، القوالح بدأت تصفو •
ـــ مساء الخير •
أطل بوجهه المسحوب كأنه عفريت ، خرج من سحابة دخان •
ـــ أهلا مساء الخير •
ـــ أين كنت ياسعد •؟
ـــ فى الدنيا الواسعة •
جلس وهو يهز رأسه بحركة تمثيلية ، ركز عينيه عليها وسألها :
ـــ ماذا تأكل سعاد •؟ هاتى حتة سمك •

ـ ياجدع اتركها فى حالها •

كانت تأكل بنهم ، فلم تحفل به ، استدار نحوى قائلا :

ـ ياسلام يا كمال « بيه » لو رأيتها قبل أن يموت زوجها ••

كانت نوازة مفتحة •

ـ قم ياسعد ، هات ورقتين « معسل » •

ـ ورقتين بس • ؟ قل ثلاث ، أربع ورقات وخرج فسمعنا من يسأله بلهفة :

ـ عم جابر هنا ياسعد • ؟

ـ لا ، ادخل •• ادخل •

ـ مالك ياولد ياحسين • ؟

ـ لا مؤاخذة ياسى مجدى ، أنا عارف انى أزعجتك كثيرا •

ـ ها ، وبعدين •• تكلم على طول •

ـ البوكس نزل الكفر ياسى مجدى ، خبئنى اعمل معروفا •

ـ تعال ، جاءتك داهية •

جذبه من ياقته وفتح جانب الكنبة السحارة ، دفعه داخلها كأنه يشحن خروفا فى قفص •

ثم قال موجها كلامه اليه :

ـ ناس تأكل البلح وناس تحدف بالنوى •

ـ ليس لى بركة الا انت ياسى مجدى •

ـ أما تشوف •

أسدل كسوة الكنبة ثم وضع غلاية الشاى على النـــار والتفت يسألها بشىء من اللين :

ـ سعاد أين كنت مختفية • ؟

لكنها لم تجبه وظلت تنظر فى حجرها وهى تقضم وتمضغ ، مد يده الى ذقنها ورفع وجهها فنظرت له بعدم ارتياح ثم تملصت منه :

ـ يا آهل الله •

ـ سعاد •• لماذا اختفيت كل هذه الأيام ؟•

ـ يوه • !

واستطرد فى حنين مصطنع : تعالى يا ام سعد •

دخلت بعودها الجاف وثيابها المهلهلة : اتمسوا بالخير يا أولاد •

قالتها وهى تمسح المكان بعينيها الخاليتين من الرموش :

ـ هو سعد ليس هنا • ؟

ـ لا ، كان هنا وخلص •!

ـ والنبى ياسى مجدى ابقى شيعه ، أنا جهزت العشاء وقاعدة منتظراه •

ـ حاضر ، حاضر يا أم سعد •

ـ يحضر لك الخير يابنى •

واستدارت نحو سعاد بنظرة ثاقبة :

ـ وأنت يا أختى قاعدة هنا تعملى ايه ؟ •• تأكلى •• جاءتك زغدة •• اعقلى وتعالى آزوجك لسعد •

ـ روحى يا أم سعد الحقى العشاء قبل ماالقطة تأكله •

ـ لا ، لن تعرف طريقه •

ـ طيب ، اذهبي ولما يأتى سعد سأبعثه اليك •

ــ على طول والنبى يابنى •• اتمسوا بالخير •
ــ مع السلامة •• يحموتك فى كنكة •!
العبارة الأخيرة قالها بصوت خافت واستطرد :
ــ يا أخى ، هذه المرأة عمرها مجبس بشكل •!
ولم يكد ينتهى من كلمته حتى سمعنا سعاد تعانى من «الزغطة» •
فقال لها : مالك • ؟ هى حسدتك ولا ايه •؟!
ــ من هى • ؟
قالها جابر ودخل فصافحنا وجلس مكررا : من هى •؟
ــ أم سعد •
ــ أما زالت عايشة •؟!
ــ وكانت هنا منذ دقيقة •
ــ وكيف حسدتك وأنت مثل العجلة يابنت الـ ••
ــ آه •• احسدها انت بقى •
ــ بنت ياسعاد ، انت فمك فيه ايه •؟ •• وابور طحين •؟!
ــ انت يعنى مهتم بسعاد قوى الليلة •؟
ــ ونحن عندنا كم سعاد ، الفرح غدا يابنت •• لا تتأخرى •
ــ خلاص اتفقتوا •؟
ــ خير البر عاجله •
ــ وطبعا انت والأستاذ من أول المعازيم ، فلا تتأخرا •
ــ ان شاء الله وربنا يتم بخير •
ــ مبروك ياعم جابر •

ـ الله يبارك فيك ، ابقى يامجدى هات معك « الطبنجة » التى كنت تصلحها .

ـ لا .. رجعت لصاحبها .

ـ ياه .. والثانية الروسى .؟

ـ مازالت معصلجة ولن تنفع .

ـ ياخسارة .

ـ أستاذ كمال ، يا أستاذ ..

ـ تعال يادعبس .. ادخل .

ـ لو سمحت كلم والدى .

ـ ياحلاوة ياجدعان ، دعبس عرف يتكلم ويقول « والدى » .. ها . هاى .

قالها جابر بمزيج من الخبث والحقد ، بينما قال مجدى :

ـ على فكرة .. دعبس سأل عنك قبل ذلك .

ـ طيب عن اذنكم .

ـ ١٩ ـ

كان أبو دعبس يبرم بيده اليمنى مغزلا خشبيا يتدلى من اليسرى القابضة على قطعة من صوف الأغنام .

انفرجت أساريره وتهلل وجهه :

ـ بقى يعنى الواحد يبعث لك عشرين مرسالا لكى يراك .

ـ الحقيقة ، أنا تأخرت فى النادى ، لكن والله كل يوم أسأل عنك .

ـ بلغنى ، سألت عنك العاقبة .. ياولد يادعبس ، اعملوا

الشاى .

قالها والتفت يسألنى : أم نجدد عشاء ؟

ــ لا ، أنا اتعشيت .. الحمد لله .

ــ كنت الصبح تعبان قوى ، صدرى كان مكتوما .

ــ ألف سلامة .

ــ الله يسلمك .. فضلت أكح ، وكأن سكينا يمزق صدرى .. فذهبت للدكتور قام كتب لى هذه الأدوية .

ــ كلها . !

ــ والغريبة أنه لم يقل بصراحة ، أنا عندى ايه .. لذلك أريدك أن تقرأ الكلام المكتوب على هذه الأدوية لكى أستريح وأعرف انا عندى ايه .

ــ لا ، بسيطة ان شاء الله .

ــ وبعدين ياكمال افندى ، أتريد أن تخبىء عنى أنت أيضا .

ــ لا ، أبدا .. لكن أريدك ألا توهم نفسك وتكبر المسألة .

ــ هى حاجة بالعقل ، لو لم أكن عندى حاجة خطيرة ما كان كتب كل هذه الأدوية .

ــ طيب ، انتظر حتى أقرأ .

فتحت العلب وأخرجت منها النشرات الطبية فوقعت فى حيرة لأنها تشير الى أن حالته خطيرة فعلا ، وكلها أدوية تعالج حالات مثل الذبحة الصدرية وضيق التنفس والربو الشعبى ..

أشفقت عليه فقلت :

ــ يظهر ياعم أبى دعبس أنك كنت عرقانا وعرضت نفسك لتيار

هواء .

ـ ياه .. ويقوم يكتب كل هذه الأدوية .!

ـ طبعا .. لكن المهم أنك تواظب على العلاج ولا تجهد نفسك .. بالشفاء ان شاء الله .

ـ الله يكرمك .. يا ألف مرحبا .

ـ الله يرحب بك .

ـ أعمل حسابك أن غدا بمشيئة الله سنتغذى معا .

ـ غدا سأكون فى مصر لزيارة أخى .

ـ طيب ، يصح بقى .ان أم دعبس تعمل فطيرتين و ..

ـ لا ..شكرا ، شكرا .

ـ لا تعمل تكليفا .

ـ أبدا والله ، انت عارف زحمة المواصلات ، وان كان على الفطير سأطلبه فى الوقت المناسب .

ـ صحيح . ؟

ـ أى والله .. وأرجو أن تنادى على غدا اذا استيقظت فى وقت مبكر .

ـ ٢٠ ـ

رجعت حوالى العاشرة مساء ، كان الكفر غارقا فى ظلمة حالكة، سألت عسكرى المرور القابع فى الكشك :

ـ هل تيار الكهرباء مقطوع عن الكفر .؟

ـ يظهر أن أحدا لعب فى المحول ، آه .. لازم يقصد أن فرح ابنة شيخ الخفر ينقلب فوضى .

مشيت بمحاذاة الطريق الزراعى ، تحت الأشجار الضخمة ، كانت الترعة شبه جافة والضفادع يعلو نقيقها ثم ينخفض ليعلو من جديد شعرت بحركة غير عادية فتوقفت .

لمحت شبحا ينزل الترعة ، اقشعر بدنى ، حاولت أن أراقبه من وراء جذع شجرة ، كان يحمل شيئا ويعبر الترعة ، لكن قدميه تغوصان فى الوحل ويرفعهما بصعوبة ، تملكنى القلق ، حبست أنفاسى ، ومرت لحظة ثقيلة كئيبة حتى أقبلت سيارة فأضاءت المكان ، تنفست الصعداء وجريت اليها :

ــ سعاد ، بنت ياسعاد ، ماذا تفعلين ؟. .. وما هذا ؟.

ــ هه ، هه .. أ .. أستاذ كمال . ربنا يخليك ماتقول لأحد . ربنا لا يفضح لك ولية .

ــ ماذا ستفعلين بهذا الحطب ؟.

ــ « اتركنى وحياة الغالى عندك ، وكأنك لم ترنى .. كأنك لم ترنى .. »

اختفت فى الظلام ، واصلت سيرى وأنا فى منتهى التعجب :

ــ لماذا هى مرتبكة . ومافائدة الحطب لها ؟!. ماذا ستفعل به . ؟! .. لابد أنها تخفى شيئا فيه .. هل تحولت الى السرقة والخطف ؟. .. يالها من مسكينة !.

وجدت الباب مواربا ، دفعته ودخلت وسط العتمة ، تعثرت فى المنقد ، ناديت : مجدى ، مجدى ، مجدى .

لكن أحدا لم يرد ، قلت لنفسى : « يبدو أنه خرج الى الدكان » .

تحسست طريقى الى الكنبة ، جلست ، مرت دقائق ولم يعد ، خلعت الحذاء وتمددت ، سمعت وقع أقدام ، كانت مفاجأة مذهلة عندما قالت بصوت هامس : مجدى •• يامجدى •

ــ ليس هنا •

ــ أنت •؟!

قالتها بخوف وانطلقت خارجة تسحب خيوط العار والخزى •

نفخت من شدة الغيظ :

ــ أف ياخائنة • ! عليك اللعنة ، أين أنت من سعاد الوفية المخلصة •

ــ ٢١ ــ

فتح دفتر الشعر ورفع يده قائلا : بس ، بس •

وكان ينطق الباء ممدودة ثم استطرد : سأقرأ لكم أحدث قصيدة •

ــ قال يعنى سيقرأ بيان مجلس الوزراء • ؟

قالها بسخرية وهو يشيح بوجهه شخص لم أره فى النادى من قبل ، فرماه عطوة بنظرة غاضبة ورد بنبرة متشنجة :

ــ تعرف ياطلعت تنقطنا بسكاتك • ؟!

ــ خلاص ياعطوة اسمعنا قصيدتك •

قلتها محاولا تهدئته فمصمص بشفتيه وبدأ يقرأ :

اذا المنية لاحقت الـسـانا   علت ذكراه كوكب النسيان

الا من رحيق غرسه الانسا   ن ينتشر عطره فى كل مكان

ولم يكد يقرأ هذين البيتين حتى دخل عامر قائلا :

ـ لا تسرح بهم ياسيد ياعطوة ، حرام عليك .. السلام عليكم ، كيف حالك يا أستاذ كمال ؟.

ـ الحمد لله .

ـ هل قرأت جريدة « الجمهورية » ؟.

ـ لا ، قرأت « الأهرام » .

ـ اذن فاسمع هذا الخبر .. هبط فى الكويت طبق طائر ، قالت الصحف المحلية : ان ثلاثة مواطنين كويتيين وموظفا أمريكيا شاهدوا الطبق الطائر وحاولوا الاتصال بالجهات المسئولة ولكن هبوط الطبق قطع جميع الاتصالات التليفونية بالمنطقة .

ـ مادام نزل فى الكويت ، ليست بعيدة أنه ينزل عندنا فى الكفر . !

ـ لكن لماذا عطل التليفونات . ؟!

ـ ياجماعة انتظروا حتى أكمل الخبر .

ـ قل ياعامر ، أكمل .

ـ .. وقد وصف شهود العيان الطبق بأنه دائرى فى حجم الطائرة ، تجره قاطرة وتعلوه قبة عليها ضوء أحمر وتغمر الطبق أضواء باهرة . وأضافوا أنه أقلع بشكل عمودى بعد سبع دقائق من هبوطه .

ـ يعنى هو مثل الطائرة الهليكوبتر .

ـ غريبة ان الطبق يظل واقفا سبع دقائق وهم عاجزون عن عمل أى شىء .

ـ خيبة ، لو أنا كنت ..

ــ يعنى كنت تعمل ايه ياناصح ٠ ؟

ــ شىء طبيعى أن المفاجأة أذهلتهم ٠

ــ يجب آن نستعد من الآن لكى لا نضرب لخمة اذا نزل عندنا ٠

ــ أيوه ، افضحنا انت افضحنا ٠٠ لكى يقولوا هذه المرة : ان الشراقوة عزموا الطبق الطائر على الغداء ٠

ــ ها ٠ ها ها ٠

ــ الله يجازيك ياعامر ٠ !

ــ لا ، اطمئن ، لن تراه أبدا ٠

ــ صحيح ، الكويت وفيها بترول ، انما كفر الغنيمى فيها ايه ٠ ؟!

ــ الشىء المحير : من أين جاء هذا الطبق ولماذا جاء ٠؟!

ــ والله نرجع ونقول : كان ياما كان ٠٠ كان فيه زمان حضارات كثيرة ظهرت واختفت قبل الأوان ثم أعيدت الحياة اليها من جديد بشكل مختلف ٠

ــ فعلا ٠٠ التاريخ القديم يتكلم عن حضارات كثيرة اختفت وتركت وراءها ألغازا مثيرة ، من ضمنها مثلا : أهرام الجيزة التى تشير أطرافها الى الجهات الأصلية بدقة مذهلة ٠

ــ الشىء العجيب أنه ، مادامت هذه الكائنات متقدمة جدا ٠٠ فلماذا لا تدير مع الانسان حوارا حضاريا ٠؟!

ــ صح ٠٠ وهذا دليل على الغطرسة والعدوانية ٠

ــ ياجماعة ، اللغة مفقودة ٠

ــ وأيضا طبيعتهم مختلفة ٠

ـ صح .. انما العملية فيها غطرسة ، يعنى لو أن رجلا من دولة متقدمة نزل فى قلب غابة افريقية ، يستحيل أن يتم أى تفـــاهم بينه وبين الافريقى البدائى ساكن الغابة .

ـ لا ياسيد .. على الأقل الناحية الانسانية ستدفعه ..

ـ أبدا ، من رابع المستحيلات أن يحدث حوار بينهما لأن هذا الأوربى ان لم ينظر الى البدائى نظرة استعلاء فهو سيخاف منــه وبالتالى ..

ـ يا جماعة نفسنا نعرف : من أين ولماذا تأتى الأطباق الطائرة .؟!

ـ علمها عند ربها .

ـ اسمعوا القصيدة الجديدة .

ـ أرجوكم ألا تصفقوا ولا تهــرجوا حتى تنتهى ســلامة مــن الغناء . !

ـ أنا سلامة يا ابن الفقى .

ـ اسم الله عليك يابن البخيل .. أبوك يربط للبطيخة رأسها بمنديل .

ـ يا أبا « أبورة » يا ابن الذى يلم « الأبور » مـــن على الجبايين .

ـ هكذا ، طيب خذ ، خذ ..

قالها طلعت بعنف وهو يكيل الضربات واللكمات فى وجه سيد عطوة وبين ضلوعه . هاج النادى وتحول الى حلبة مصارعة بين عائلتى هنداوى ومنشاوى . وبدأ التخريب والتكسير ، فأدات اللعب والكراسى ترتفــع وتطير فى الهــواء لتســقط على الرءوس

وتدمى الوجوه . أحسست بارتباك شديد وأنقذنى صلاح الذى أمسك بيدى قائلا : هيا بنا ، مالنا ياعم ومال هؤلاء الغجر .

— ٢٢ —

كان يصلح مسدسا قديما ، التفت بشىء من الفزع وقال بنبرة غاضبة :

ــ يا أخى تكلم ، قل : احم .

ــ خفت . ؟!

سكت ومرت فترة من الصمت ، أخفى المسدس وجاء يسألنى :

ــ ايه السبب انك تأخرت هكذا .؟

ــ منى ابنة الناظر متأخرة فى دروس الفرنسية و ..

ــ ياوعدى .

قالها بطريقة غجرية وهو يصفق ويهز رأسه كأنه يشجع راقصة خليعة واستأنف قائلا :

ــ وصلت يا أبا كمال ، أنت وصلت .

ــ لا أعتقد ان حضرة الناظر يفكر على هذا النحو .

ــ مالنا ومال الناظر ، هى السنارة غمزت وخلاص .

ــ وحياتك السنارة ضائعة .. ولعلمك الشخصى أن أخاها الصغير يجلس معنا أثناء المذاكرة .

ــ وايه يعنى ، المهم انها نظرة فبسمة فقبلة وبعدين الحقنى يابابا ... هذا أحبه وهذا أريده .

ــ ياسلام على أفكارك النيرة .!

ــ اسألنى أنا عن بنات اليوم .

ـ السؤال لغير الله مذلة ، قل لى .. أين الأكل .؟

ـ عندك ، فوق المنضدة .

بدأت أمضغ طعامى وأنا شارد بأفكارى مع وجهها البيضاوى المشرق وشعرها الفاحم الجميل وعينيها المليئتين بكل معانى العذرية ..

تنبهت فجأة على صوت جابر شيخ الخفر يقول لمجدى :

ـ مصيبة ، حصلت لى مصيبة .

ـ حصل ايه كفى الله الشر .؟

ـ البندقية أم روحين سرقت .

ـ سرقت كيف . ؟ أين كنت تخبئها .؟

ـ فوق السطح ، فى الحطب .

ـ وتشك فى من .؟

ـ لا أعرف .. اننى لم أخبر أحداً بمكانها .

ـ ألم تخرجها ليلة الفرح .؟

ـ لا ، لا لم أخرجها .

ـ تبقى العملية فيها ملعوب .. ملعوب كبير قوى .

ـ مصيبة وقعت على يافوخى ، دبرنى يامجدى ، أعمل ايه .؟

ـ ولا حاجة تعمل ايه .؟ احمد ربنا انها ليست بندقية الحكومة ، كان بيتك انخرب .

ـ ماهى ممكن تصل للحكومة وأروح فى داهية .

ـ لا ، أبدا .. مسيرها تظهر .

استقبلنى النقيب سمير بحفاوة بالغة وقال : تصدق يا كمال اننى كنت أتوقع مجيئك الآن ؟!

ـ القلوب عند بعضها كما يقولون •

ـ من ساعة وأنا أريد أن أخرج لكن شيئا خفيا يقيدنى الى المكتب هكذا ••• قل لى ، ماذا تشرب •؟

ـ أى حاجة •

ضغط جرسا على حافة مكتبه فجاء واحد من الجنود : تمـــام يا أفندم •

ـ هات اثنين شاى بسرعة •

ثم التفت الى وسألنى : وياترى ماذا كنت تفعل هنا فى منيــا القمح • ؟

ـ لا ، أنا أتيت اليك مباشرة •

ـ أهلا وسهلا ، انت تشرف فى أى وقت •

ـ شكرا •

ـ قل لى ، عامل ايه مع العربيد •؟

ـ لا شىء تقريبا •

ـ وسعاد أخبارها ايه •؟

ـ رأيتها أخيرا فى وضع مريب •

ـ سعاد • ؟ مع من •؟

ـ لا ، أنا لا أقصد هذا المعنى اطلاقا •

ـ فسر كلامك •

ـ انقطعت الكهرباء ليلة أمس الأول أثنــاء فرح بنت شــيخ الخفر وكنت راجعا من القاهرة ، سمعت شيئا يطيش فى الترعــة وانقطع نقيق الضفادع ، ثم لمحت شبحا يحمل شيئا ويعبر الترعة ، وقفت خلف جذع شجرة ، مرت سيارة فأضاءت المكان ، رأيت سعاد ، كانت تحمل حزمة من الحطب ، ناديتها فارتبكت ورجتنى ألا أخبر أحدا عنها ثم تركتنى وعبرت الطريق متجهة الى الحقول فى الجانب الآخر •

ـ كان يجب ألا تتركها هكذا •

ـ ظننت أنها سرقت هذا الحطب لتطهو طعاما أو تدفىء ••

ـ لابد أنها كانت تخفى شيئا فيه •

ـ هذا ماورد بخاطرى ليلة البارحة فقد سمعت جابر شيخ الخفر يبلغ مجدى أن كارثة حدثت له وهى أن البندقية أم روحين سرقت من الحطب •

ـ من الحطب •؟!

ـ ليست بندقية الحكومة لكنها بندقية غير مرخصــة على ما فهمت •

ـ بالتأكيد سعاد هى التى سرقتها •

ـ والعمل • ؟

ـ هذا وضع خطير ويجب أن أتحرك بسرعة •

— ٢٤ —

ارتديت ملابسى وأنا أفكر بشىء من القلق لأنى حتى هذه اللحظة

لم أكن بمستطيع أن أخمن رد الفعل أو التصرف الذى ستقوم به « منى » ، لم أكن متأكدا من أنها ستفهم ماكتبته لها •

وبينما كنت متأهبا للخروج سألنى مجدى : الى أين •• بعد ما أغلقوا النادى • ؟

ـ الى أين •؟ •• اسمع يامجدى ، مارأيك لو أننى مثلا •• مثلا يعنى ، كتبت ورقة لمنى ابنة الناظر •

ـ ها • ! وبعدين •؟

ـ وطلبت منها أن تنتظرنى فى مكان معين لأن عندى كلاما ••

ـ لا ياصاحبى ، لقد أخطأت •• بنات الكفر لا يفهمن هذه الطريقة ، انهن غير بنات مصر •

ـ أهكذا • ؟!

ـ طبعا ياصاحبى ، لكن •• هل كتبت لها هذه الورقة فعلا •؟

ـ نعم •

ـ أخطأت بلا شك •

ـ والعمل •؟

ـ لا تذهب •

ـ وافرض انها ••

ـ اسمع ، اسمع •• يظهر ان فيه خناقة •

قالها وجرى الى الباب ، كان الرجال يهرولون وعلى وجوههم خيوط الشر والغضب المستطير •

سأل مجدى أحدهم : ماذا حدث يامغاورى •؟

لكنه لم يلتفت اليه ، بعد لحظات علا الصراخ وسمعنا من يقول :

ـ جابر شيخ الخفر انضرب بالنار ، جابر شيخ الخفر .. !
جابر ..

جرينا معهم حتى وصلنا الى الجانب الغربى من القرية حيث الجبانة التى يمر أمامها طريق ترابى وتحيط بها حقول الذرة ، ومع أن الجبانة لاتبعد كثيرا عن القرية الا أن المكان يوحى بارتكاب جريمة وسرعان ما تجمع من سكان القرية عدد هائل تتفاوت أحاسيسهم بين الشماتة والحزن ، والجميع لا يخفون آراءهم فتتناثر الكلمات عالية أحيانا ، هامسة أحيانا أخرى :

ـ قتلوه أولاد هنداوى ..!
ـ والله ماتفوت لهم على خير أبدا ، لازم تؤدبهم .
ـ جابر مازال حيا ، الرصاصة جاءت فى فخذه .
ـ ليتها جاءت فى قلبه .
ـ يمهل ولا يهمل .
ـ صحيح ، لك يوم ياظالم .
ـ ياترى من الذى ضربه ..؟
ـ واحد شبعان من لبن أمه .

لاحظت أن مجموعة من الرجال ينتشرون بين المقابر وأعواد الذرة ، يحومون بالسلاح بحثا عن الجانى ، لكنهم اختفوا عندما وصلت سيارة البوليس وبعدها مباشرة سيارة الاسعاف ، كانت الجثة ملقاه على قارعة الطريق ، يحيط بها لفيف من أقارب شيخ الخفر وأصدقائه يحاولون كتم النزيف ، فحصه وكيل النيابة ، قام الجنود بتفريق الناس وابعادهم ، ثم حاصروا مكان الجريمة ،

مرت لحظات من الترقب ، تحركت سيارة الاسعاف بعد أن وضعوا فيها شيخ الخفر وسط عاصفة من الصراخ ، أطلق رجـال البوليس عدة رصاصات فى الهواء ، فجاء الرد من داخل المقابر ، طـارت فوق رءوسنا رصاصة طائشة ، تأكدنا من أنهم سـيقبضون عـلى الجانى ، ضرب الجنود دفعة أخرى من الطلقات فى الهواء ، لكن الجانب الآخر لم يرد ، تسللوا الى احدى المقابر المطلة على الطريق ولم يمض وقت طويل حتى أذهلتنا المفاجأة عندما خرجت من هذه المقبرة سعاد المجنونة بشعرها المنكوش وثيابها القـذرة تحمـل البندقية أم روحين .

— ٢٥ —

جلست على شاطىء بحر « مويس » ، تحت شجرة الصفصاف ، أترقب وصولها بين لحظة وأخرى ، مرت بخيالى فكرة أنها قـد لا تأت لكن وجهها المشرق تجسد لعينى على صفحة الماء الرقراق ، فسرحت مع شريط الأحلام الذى لاينتهى ، تنبهت على صـوتها العذب :

— أستاذ كمال .

— أهلا « منى » .

— آسفة ، انى تأخرت عليك .

— لا .. أبدا ، تعرفى يامنى ، أنا مهما حاولت أن أصـف لك سعادتى بهذا اللقاء ، فلن أقدر لأن كل كلمات الدنيا لا تكفى .

— ياه .. انت شاعر حضرتك .؟!

— أنا لو فى يوم قلت الشعر ، فالفضل يرجع لك .

ـ اسمح لى •• أنت تبالغ ••

ـ أبدا •• صدقينى ، تخيلى بحار تائه ظهرت له من بعيد فنـارة عالية ، عصفور غريب ولقى حبيبا يؤنسه •

ـ ياه •• أنا كل هذا •؟

ـ بالنسبة لى فأنت أكبر وأجمل وأهم من كل هذا •

ـ من يسمعك يظن أن البلد ليس فيها بنات •

ـ من البلد كلها عيناى لم تعشقا الا أنت ، وقلبى لم يخفـق الا بحبك وأذناى لم تسمعا الا صوتك •

ـ متى ستطلبنى من أبى • ؟

ـ هه ، أطلبك • ؟

ـ ألن تخطبنى •؟

ـ طبعا •• طبعا ، لكن أنت مستعجلة على الخطوبة لماذا •؟

ـ لازم علاقتنا تبقى رسمى ، أم أننا سنظل نلتقى هنا •؟

ـ أفهم من ذلك أنك لاتثقين ••

ـ الثقة حاجة بينى وبينك •

ـ يعنى ايه •؟

ـ يعنى لازم نمشى على سليم •

ـ وهل نحن الآن على غش •؟

ـ بالعربى كل صديقاتى تلبسن دبل الخطوبة •

ـ كلهن • ؟ ؟

ـ آه كلهن • ؟

مرت لحظات من الصمت الحزين ، هى ترمى الحصى فى المـاء

ينبعث منه صوت عميق وأنا أفكر بشيء من الحيرة : « معها حق .. لكن أنا.. أعمل إيه . ؟ مرتبى يكاد يكفى ، هل أمتنـــع عن مساعدة أخى .؟ .. لا ، لا يمكن ، لست جاحدا .. طيب أعمــل ايه .؟ هى الآن تتحدث عن الدبلة وساعة الجد يبقى فيــه أساور وسلسلة وهم ثقيل ..

ـ أستاذ كمال ، سرحت فى ايه .؟

ـ هه ، اسمعى يامنى ، أنا لا أريد أن أفرحك بدبلة لأن المشكلة أكبر من دبلة الخطوبة .

ـ مشكلة ايه . ؟

ـ مشكلة مابعد الخطوبة ، مسئولية الزواج .. الواحد يجب أن يستعد لتحملها أولا ، أنت مثلا لم تكملى تعليمك بعد .

ـ ابنة خالتى أكملت دراستها الجامعية بعد الزواج .

ـ لكنه أسلوب خاطىء .

ـ وأنا ليس عندى استعداد أن أجىء الى هنا بعد ذلك ، لو أن أبى رآنى لقتلنى .. عن اذنك . تركتنى وذهبت ، دارت بى الدنيا ، لم أدر كم من الوقت مضى وأنا أحلم بالاعارة ، الثروة ، الزوجة ، البيت ، السيارة ، الأولاد .. تتسع رقعــة أحـــلامى ، تهتز وتتأرجح على صفحة الماء .

ـ ٢٦ ـ

كان جالسا على الكنبة وفى يده مبسم النارجيلة ، نظر الى شزرا ، دخلت قائلا : السلام عليكم .

لـــكنه لم يرد ، لاحظت أنه يفكر بغضـــب ، سألته : مالك

يامجدى • ؟
ــ أين كنت الآن •؟
ــ كنت فى المركز وسيطلبونك للشهادة •
ــ يعنى خلاص ، أبو العريف طالع تجرى على هناك •!
ــ وايه لزوم الغلط •؟
ــ هو أنا قاعد هنا « طرطور » •؟
ــ وانت مالك •؟
ــ بقى جزاءى انى لمتلك من الشارع وسكنتك ••
ــ نفسى أعرف انت ••
اخترقت مسامعنا صرخة حادة انبعثت من المنزل المقابل ، كان أبو دعبس ممددا على الأرض ، غائبا عن الوعى ، تجمع نفر من الجيران ، قال أحدهم : بصلة : هات بصلة يا أم دعبس • جريت بسرعة فأحضرت زجاجة الكولونيا ، مرت لحظات صعبة ، أفاق الرجل فتنفسنا الصعداء ، خرجوا واحدا تلو الآخر بعد أن هنأوه على سلامته ، احتضن طفليه وجعل يقبلهما ويمسح دموعهما بطرف جلبابه ، قال لزوجته : أجر يا أم دعبس اعملى الشاى •
التفت الى : مرحبا يا أستاذ كمال •
ــ كيف حالك الآن • ؟
ــ نحمده على كل حال •
كان منظرا مؤثرا للغاية عندما قام الطفل الصغير يقبل والده مرة أخرى ويحتضنه بيديه الصغيرتين ، برق الدمع فى عينيه الذابلتين ، أخرج حافظة نقوده قائلا :

ــ خذ يادعبس ، اشتر فول سودانى وكل انت وأخوك •

تهلل وجهى الطفلين بسعادة غامرة وخرجا الى الدكان ، لكن دعبس رجع بسرعة وقال لى :

ــ الحق يا أستاذ ، فيه عسكرى على بابك ومعه عاشور الخفير •

قابلنى مجدى بنبرة ساخطة : تعال يا أفندى ، عرفنى ، قلت ايه فى المركز ••؟

تجاهلته وذهبت الى العسكرى مستفسرا : خير ياشاويش ••؟

ــ مجدى الطاهر مطلوب فى النيابة •

ــ رد على ، قلت ايه عنى ••؟

ــ اذهب يامجدى وانت مطمئن ، لم أذكرك بسوء •

ــ طيب ياجدع •• لك روقة وصبرك لما أرجع •

أطلق هذه العبارة بنبرة تهديد وهو يمسك ذقنه ومشى ينفخ من شدة الغيظ •

ــ ايه الحكاية يا أستاذ كمال ••؟!

قالها أبو دعبس بنوع من الدهشة واستطرد : تعال ، ادخل من الشارع •

جلسنا فقال بشىء من اللهفة : حصل ايه بينك وبين الذى اسمه مجدى • ؟

ــ أبدا ، ذهبت الى المركز فأدليت بمعلوماتى عن مشكلة سعاد وعند خروجى من المركز رآتنى أم سعد :

ــ امرأة ملعونة ، لا تبل فى فمها الفولة ••!

ــ فعلا •• هى أبلغت مجدى فثار على وعملها حكاية •

ــ الذى أكل لحمة نيئة توجعه بطنه • !
ــ مسكينة سعاد ، تعذبت كثيرا •
ــ المهم أنها طلعت رجلا •• ليست كالتى عندى ، تصور انها قرفت منى • !
ــ من هى • ؟
ــ أم دعبس •• أصبحت الآن تشتم الأولاد وتتمنى لى الموت •
ــ لا يارجل ، لا تصدق •
ــ أصدق •؟! أنا سمعتها بنفسى •

ــ ٢٧ ــ

فوجئت عند دخولى من ناصية الشارع بأن كل حاجياتى ملقاة أمام الباب ، أحسست بانقباض وتملكتنى الحيرة ، رآنى فنظر فى الأرض وجعل يهز ميدالية فى يده بعصبية •
ــ لماذا يامجدى • ؟
ــ اطلع من سكات وابحث عن مكان آخر •
ــ أنا عملت لك ايه لكى تطردنى •؟
ــ قصر الشر واخرج •
ــ اخرج الى أين •؟ انتظر حتى أجد غرفة •
ــ اطلع ياخائن العيش والملح ، أنا ، أنا تبلغ عنى ، أنا أسرق سماد الجمعية ، هيا •• هيا •• أغرب عن وجهى •
قالها بنبرة مرتعشة زاعقة وانتفض واقفا يشيح فى الهواء كثور هائج • ذهبت الى فتحى صاحب المنزل ، دققت الباب فخرج وهو

يكمل مضغ لقمة فى فمه ، مد يده قائلا :

ــ أهلا كمال بيه ، حماتك تحبك •• تعال الى الغداء ، تفضل •

ــ شكرا يافتحى •

ــ اعملها مرة ولا تكسفنى •

ــ فيه حاجة أهم •

ــ خير جرى ايه •؟

ــ مجدى طردنى •

ــ طردك • ! طردك كيف •؟ أكان بيته ؟ اخص عليه وعلى أصله•

ــ رجعت الآن من المدرسة فوجدته قــــد رمى حاجياتى فى الشارع •

ــ أما أنه عديم الدم صحيح !• تعال معى ••

كان الباب مغلقا ، دق فتحى عدة مرات ونادى : ياسى مجدى ، يامجدى ، مجدى •

لكن أحدا لم يرد ، التفت الى وقال بغيظ : « هرب الجبان » •

ــ ويعدين ، أعمل ايه • ؟

ــ سننتظر حتى يرجع •

ــ الله •! انت ماشى ولا ايه يا أستاذ كمال • ؟!

قالها أبو دعبس الذى كان عائدا من حقله ، يرتدى قميصا أبيض مزهر ، فوقه صديرى أخضر •

ــ المفترى طرده •

وضع الفأس عن كتفه وقال برنة حزن حقيقى :

ــ طردك • ! • آه النذل ، هو انت « وش بهدلة » ؟! المجرم •

تملكنى شعور بالمهانة والاحباط ، أحسست بصداع حـــاد ، تمنيت لو أننى لم أقض عمرى فى الدراسة ، لو كنت فلاحا مثــل فتحى أنعم براحة البال والحياة الهنيئة المستقرة ، انتشلنى أبودعبس من موجة الاحباط حين قال وهو يشير الى سطح بيته :

ـ أستاذ كمال ، سأخلى لك المقعد لحد مارينا يفرجها •

كان « المقعد » عبارة عن حجرة صغيرة فوق السطح مبنية بالطوب الأخضر ، لها شباك ضيق والباب قصير بلا « ترباس » •

قاموا بإخلائها من الأجولة والصفائح والجرار المختلفة الأحجام ونظفتها أم دعبس •

ثم رشت أرضيتها بالماء •

نقلنا حاجياتى فيها ، أحسست بارتياح وقلت لنفسى :

ـ هى على كل حال أفضل من معاشرة ذلك الوغد •

فكرت فى أن أركب للباب قفلا ، لكننى خشيت أن يفسروا ذلك بأننى لا أأتمنهم على حاجياتى •

ـ ٢٨ ـ

دفعت الباب ودخلت ، فوجدت الغرفة نظيفة ومرتبة بشــــكل مريح ، بدأت أغير ملابسى ، لاحظت أن الملابس التى تركتها معلقة على الشماعة غير موجودة ، خرجت الى مسقط السلم وناديت :

ـ دعبس •• يادعبس •

ـ ليس هنا يا أستاذ كمال ، أى خدمة •؟

ـ ملابسى ••

ـ عند المكوجى وستصل حالا •

ـ طيب ، شكرا .

شممت رائحة كريهة ، تهب فى أركان الغرفة من حين لآخـر ، ظننت أنها تأتى من الخارج ، فأغلقت الباب والشباك ، لـكنها استمرت ، لجأت الى الكولونيا فلم تجد .

سمعت دقات خفيفة على الباب ، فقلت : أدخل .

أخذت منها الملابس قائلا : أنا شاكر جدا .. بس أرجـو أن تكون هذه آخر مرة لأنى أحب أن أغسل ..

ـ لماذا تفرق بيننا هكذا .؟ ألست واحدا منا الآن ؟

ـ لكن الواحد لازم يكون عنده نظر .

ـ الحمد لله أنك قلتها بلسانك .

ـ قصدى ياست أم دعبس آن وراءك أعمالا كثيرة فى البيت والغيط .

ـ أنت الآن واحد من البيت وعلى العموم أبو دعبس لن يغار منك .

شعرت أن عبارتها الأخيرة تحمل أكثر من معنى ، لم أعرف كيف أرد عليها ، حاولت أن أخرج النقود من جيبى ، لكنها أمسكت يدى بسرعة : « ماذا ستفعل .؟ المكوجى يحاسب الموظفين بالشهر »

ـ بالشهر .؟ طيب وثمن اللبن الذى أحضره دعبس الصبح .؟

ـ اللبن من عندنا .

ـ لكن لازم أدفع ثمنه .

ـ حاسب الرجل بقى ، هو الذى قال ..

ـ الحقيقة ، جمايلكم زادت قوى .

ـ لا تقل هذا ، يعنى عملنا ايه ؟.

ـ على فكرة .. هنا رائحة غريبة .

ـ أيوه صحيح ، جاءت من أين ؟.

قالتها وبدأت تفتش فى أركان الغرفة ، ثم نزلت تحت السرير . قمت بفتح الشباك ، لكى تزيد نسبة الضوء ، لاحظت أنها تتعمد تعرية جزء كبير من ساقيها فسألتها :

ـ هل وجدت شيئا ؟.

ـ فأر ميت .

ـ ٢٩ ـ

كنت جالسا فى حجرة المدرسين ، منهمكا فى تصحيح الكراسات جاء يصفر بفمه ويغنى :

ـ توبة ان كنت أحبك تانى ، توبة .. بس قابلنى مرة .. صباح الخير ياكمال .

ـ أهلا صلاح .

خلع نظارته السميكة وبدأ يمسح زجاجها قائلا : النادى وقفلوه، وأنت أيضا تحرمنا من أنسك . ؟

ـ أنا تحت النظر يا أبا الصلح .

ـ لا .. طيب كنت أسأل ، أم أنك نسيت العنوان ؟.

ـ مشاغل والله ياصلاح .

ـ صحيح ، أنت عامل ايه فى السكن الجديد ؟.

ـ والله الناس طلعوا ذوق معي ، لكني مشغول بالتحضير لرسالة

الماجستير .
ــ وستكون عن ماذا ..؟ هتلر .
ــ يعنى ، تاريخ ألمانيا النازية .
ــ أتمنى لك التوفيق .
ــ شكرا يا صلاح .
ــ اليوم ، نحن عندنا فرح : ابن عمى سيتزوج .. ايه رأيك تأتى معى وفرصة لتشاهد أفراح الريف .
ــ عقبال فرح « هند » .
ــ المهم أنت ، متى ستعملها ..؟
ــ أتزوج يعنى ..؟ ربنا يسهل . قل لى ياصلاح : ألا تعرف لى جمعية أشترك فيها ؟
ــ تريدها بكم جنيها ..؟
ــ عشرة مثلا .
ــ فيه جمعية على مدى خمسة عشر شهرا .
ــ عز الطلب .. ممكن أقبضها فى الأول ..؟
ــ قل الثانى ، الثالث .
ــ ماشى ، ماشى .
ــ اذن فأنت تستعد للزواج .
ــ تقريبا .
ــ ومن هى سعيدة الحظ ..؟
ــ لا ، خليها مفاجأة .
كانت واجهة المنزل مغطاة بعدد هائل من اللمبات : حمــراء ،

خضراء ، صفراء ..

أصوات الغناء تعلو وتختلط أحيانا بدقات الطبلة والتصـــفيق الجماعي ، دخلنا بصعوبة لكثرة المدعوين ، وحينئذ كانت تتوسطهم طفلة ترقص برشاقة . ردد صلاح : « عقبال عندكم جميعا » .

سرنا الى « المندرة » لكنه توقف ليصافح سيدة فى خريف العمر:

ــ ألف مبروك يامرأة عمى وعقبال حجك .

أصابنى الملل وأحسست بالضيق من زحام المنــدرة ، الدخان الكثيف ، الثرثرة الفارغة ، كثرة السلامات ، سمعت صوتا ناعما : عقبال دعبس يا أم دعبس .

ــ عقبالك أنت يانور عينى .

ــ أغانيك الحلوة يا أم دعبس ..

ــ بس قولوا ورائى .. آمة نعيمة .. نعمين ، خلى عليـــوة يكلمنى .. أمة نعيمة ..

ملت نحو صلاح وقلت : ما رأيك لو نقعد مع الشبان ..

ــ آه وماله ، تعال .

جفلت عندما رأتنى وتملكها الارتباك ، انتفضت واقفة ، خطفت شالا أحمر ، لفته على وسطها ثم أنزلته أسفل سرتها وربطتـــه ، رفعت ذراعيها وبدأت ترقص كما لو كانت محترفة ، والجميـــع يصفقون بحرارة ويغنون : يا لع .. دلع وخل الحلو يتطلع ، يادلع دلع ..

كانت تتمايل وتتلوى بسرعة وتهز بطنها وصدرها مع ايقـــاع التصفيق بمهارة فائقة وفى وجهها بريق النشوى لكلمات الاعجـاب

المتناثرة :

ـ ياعينى على الفن .

ـ آه ياوعدى ، ارحمنى يارب .

ـ قسم ياولد قسم .

ـ ياحنين على الوسط .

ـ ٣٠ ـ

اخترقت أذنى صرخة مكتومة ، ثم آنات بكاء وارتفع صوت أبى دعبس كالزئير ، ظننت أحدا يتشاجر معه فنزلت بسرعة ، رأيته يركل زوجته بقسوة ، ملقيا عليها جام غضبه فى كلمات :

ـ يامفضوحة ، ياخسيسة ، ياعديمة الأصل ، أنت ؟. .. أنت عندك كرامة أنت .؟!

أخذته وصعدنا الى غرفتى ، جلس وهو يتنهد وينظر للاشئ ، فقلت له :

ـ صل على النبى وهدىء نفسك ...

ـ اللهم صل عليه .. أنا غلبت خلاص .. غلبت منها ..

ـ لا يارجل ، كل البيوت فيها مشاكل وخلافات .

ـ لا يا أستاذ كمال .. ليس الى هذه الدرجة ، انهـا تغيرت خالص .. هذه الأيام بالذات .

ان قلت شرق تقول غرب .

ـ روق انت بس ولا تكبر الحكاية هكذا .

ـ أنا قلت لها : لا تدخلى بيت الذى اسمه مجدى . كسـرت

كلامى وراحت عنده .

آخرة المتمة ترقص فى فرح ؟!

ــ أنا معك انها أخطأت ، لكن الضرب يخليها تعاند .

ــ هذا الصنف يأخذ على دماغه ، يمشى مضبوط .

ــ أبدا ، عمر الضرب ماكان علاجا .

ــ هى ، أصلها قرفت منى خلاص .. تتمنى لى الموت ، لكنى فاهمها ومصحصح لها قوى ..

ــ لا ، أنا لست معك فى هذا الكلام .

ــ أنا لازم أطمئن على مستقبل الأولاد .. لازم أكتب الدار والأرض لدعبس وأخيه .

ــ يبقى حرام عليك .

ــ لا يا أستاذ كمال ، أنا لو مت اليوم أو غدا ستتزوج والأولاد يتشردون .

ــ أليسوا أولادها أيضا .!

ــ لكنها اذا تزوجت ..

ــ ولماذا تفترض أنها ستتزوج . ؟

ــ وايه يضمن . ؟

ــ ياسيدى ربنا يخليك ويطيل عمرك .

ــ سأكتب الدار والأرض للاولاد لكى أموت وأنا مستريح .

وضعت صينية الشاى وقالت وهى ترسم على شفتيها ابتســامة

رفيقة : وشك •• ولا وش القمر •

ـ الله يكرمك •

ـ يعنى ، لو لم تكن « منى » تحتاج اليك في دروس الفرنساوى لا نراك • ؟

ـ الحقيقة ، كانت عندى مشاغل كثيرة •

ـ طيب يا أستاذ كمال ، خليك على كيفك •

قالتها وخرجت ، فأحسست بارتياح وغمرتنى موجـــة مـــن التفاؤل بخصوص الطلب الذى عقدت العزم عليه •

مد يده نحو الصينية قائلا : تفضل الشاى يا أستاذ كمال •

ـ شكرا •

أخذت رشفة من الكوب وأنا أفكر بعمق ثم قلت : أريد التحدث مع حضرتك فى موضوع شخصى •

ـ شخصى •؟ ماهو •؟

ـ أريد أن أكمل نصف دينى ••

ـ شىء جميل •

ـ ووقع اختيارى على الآنسة « منى » •

ـ منى •؟

قالها بانفعال وهو يحملق فى باستنكار ، زادت دقات قلبى ، وجف حلقى فبلعت ريقى وأجبته :

ـ نعم ، هل هناك مانع •؟

ـ طبعا ، انها مازالت فى الثانوية العامة •

ـ نعلن الخطوبة الآن والزواج يتم بعد ••

ـ لا،لا وهل هذا كلام ؟ ثم ان منى لازم تعيش فى مستواها .
ـ يعنى ايه . ؟
ـ انت عامل ايه فى سكنك الجديد .؟!
ـ على العموم ، كلها سنة أو سنتين وانتقل الى القاهرة .
ـ لا القاهرة أرخص من هنا ولا السكن فيها متوفر .
ـ ساعتها أكون وجدت شقة هنا أو فى منيا القمح .
ـ لعلمك الشخصى ، ابن خالتها مهندس زراعى ورفضته .
ـ طيب ، ممكن حضرتك تسألها ؟.
ـ هذه اهانة يا أستاذ ! أسألها .؟ حلوة أسألها .!

قالها بسخرية وغضب مفتعل ، فقمت مرددا : أنا آسف ، آسف جدا .

خرجت والأسى ينشب أظافره المدببة فى رأسى المثقل بالهموم .

ـ ٣٢ ـ

على غير عادتها دخلت دون أى تنبيه ، أغمضت عينى وتظاهرت بالنوم ، لكنى تابعتها من بين رموشى ، نظرت ناحيتى ثم وضعت كوب اللبن على المنضدة وغطته بورقة من صحيفة قديمة . استدارت ومرت لحظة وهى تغرس ناظريها فى صدرى الذى كان عـــاريا اقتربت وهى تفرك أصابعها فى شىء من الارتباك وجلست عـلى حافة السرير ، أحسست باختناق كأن حجرا ثقيلا يجثم على قلبى ، ويبدو أنها كانت تدرك أننى غير نائم لأن صدرى يعلو وينخفض بشكل ملحوظ .

مدت أصابعها البضة تداعب شعر صدرى وقالت بصوت حالم :

ــ أستاذ كمال .. يا أستاذ كمال .

ــ من ..؟ ست أم دعبس . !

ــ كفاياك نوم بقى .. أنت تنام كثيرا .

ــ من التعب .

قلتها وأنا أبادلها نفس النظرة الملتهبة ، مستسلما لأصابعها الدافئة قالت بشىء من التردد :

ــ أنت .. أنت ..

ــ أنا ايه ..؟

ــ شعر صدرك ثقيل .

ــ صحيح . ؟

قلتها وأنا أعصر يدها بلا وعى ، فمالت نحوى قائلة بنبرة هيام :

ــ صحيح .

وحينئذ التصقت الشفاه ثم تمزقت الصورة الغالية التى كنت أستمد منها احترامى لنفسى .

ــ ٣٣ ــ

ضاقت الدنيا فى عينى ، اهتز فى رأسى بعنف سلك شـــائك اسمه : عذاب الضمير .

مشيت هائما حائرا بين الحقول ، تطاردنى أفكار سوداء ،توغلت بين المزارع كأنى أهرب من شىء مخيف أو أبحث عن الانسان الذى ضاع واختفى من أعماقى هذا الصباح .

استوقفنى طفل فى السابعة أو الثامنة ، ملامحه ليست غريبـــة

ولكنى لم أتذكر متى رأيته من قبل ذلك ؟.
كانت صور الأشياء ترتعش فى ذهنى ، قال وهو يفرق بيـديه أعواد الخوص : « تعال من هنا يا أستاذ » .
رأيت الأستاذ صلاح جالسا على كوم هائل من « الردم » تحت شجرة توت ، مشيت خلف الصبى على حافة قناة ضحلة حتى وصلنا الى الشجرة ، فنزل واستقبلنى قائلا :
ــ أهلا ياكيمو .. من الذى وصف لك الغيط . ؟
ــ لا أحد .
ــ لو أننا لم نرك كنت ستأخذ فى « وشك » وتسير على طول .
ــ فعلا .
ــ اطلع يا ايهاب ، اجمع لنا طبق توت .. مرحبا ياكمال ، لماذا لم تأت الى المدرسة اليوم ؟.
ــ تعبان والله ياصلاح .
ــ تعبان من ايه ؟. انت مثل الحصان .
ــ أشعر بضيق وملل .. الحياة أصبحت فارغة باهتة قاحلة ..
ــ بس ، تبقى حالة حب يابطل .
ــ هى حالة غلب وانت الصادق .
ــ غلب ؟. آه ، قصدك غلب من حياة العزوبية ، عال قوى ، يبقى فيه تقدم نحو الزواج .
ــ قل لى ياصلاح ، لو كنت مكانى .. تفكر فى الزواج من ابنة الناظر . ؟
ــ ابنة الناظر .. لا طبعا .

ـ لماذا • ؟

ـ لأنه رجل انتهازى وامرأته معلقة من عجيزتها مثل الباذنجانة •

ـ لكنى لن أتزوجه هو ولا ••

ـ سيجزرونك ، امرأته جاهلة وترى ان ابنتها تعلمت وحصلت على الشيء الذى افتقدته هى وبالتالى فان عملية الزواج لابد أن تكون فخمة جداً تليق بمقام ابنتها الفرخة بكشك •

ـ ها • ها •• الله يجازيك ياصلاح •

ـ أنا من البلد وأعرفهم عن قرب •• لكن أنت ، يستحسن أنك لا تأخذ كلامى كشىء مسلم به ، وجرب حظك •

ـ أنا فعلا جربت •

ـ والنتيجة ؟

ـ رفضنى •

ـ عرفت •؟ وطبعا انت لم تكن تتوقع أن يرفضك •

ـ على الأقل لم أتوقع أن يرد على بسخرية واحتقار كما حدث •

ـ لا ، انه رجل عديم الذوق •• يأكلها ، يعنى كانت السفيرة عزيزة ! • ولا يعنى الذى خلقها لم يخلق غيرها •!

ـ موقف غريب من رجل ، المفروض أنه تربوى •

ـ نصيحة منى ، لا تتزوج من الأرياف •

ـ هل تظن الزواج سهلا فى المدن •؟

ـ ليست النظرية ، انما هناك ستجد من يفهمونك ويتعاونون معك ، هل تصدق أننى غارق فى الديون حتى الآن •؟

ـ بسبب تقاليد الزواج ..؟

ـ أليست مهزلة ..؟ الانسان يتزوج بحثا عن السعادة فيجد نفسه واقعا فى سلسلة من المشاكل ، تحيل حياته الى جحيم .

ـ الآن عرفت لماذا يدلل الآباء أبناءهم حتى تفسد أخلاقهم .

ـ الواحد منا يتعذب حتى يخلف ابنا فكيف يقسو عليه ..؟

ـ وأيضا لأن الآباء مشغولون بالعمل ليلا ونهارا لتسديد الديون .

ـ فعلا ، كلامك سليم .

ـ ٣٤ ـ

تنبهت على ضحكة رنانة فيها ملامح الشقاوة ، وخفة الدم ، سمعت أم دعبس تقول :

ـ أسكتى يانادية أحسن الأستاذ نائم .

ـ هو أستاذ بصحيح ..؟

ـ أيوه أستاذ فى المدرسة الاعدادى .

ـ كبير فى السن ..؟

ـ آه يا أختى منك .. قبل المغرب سيخرج وترينه .

ارتسمت فى خيالى صورة نادية كفتاة جريئة وجميلة ، واربت الشباك بحذر واختلست نظرة فرأيتها من ظهرها ، كانت ممشوقة القوام يتدلى شعرها الكستنائى بهيئة ذيل الحصان ، يكاد الدم يقفز من كعبيها المتوردين ، ومع أنها ترتدى الثوب الفلاحى الأسود الا أنها ليست ريفية . خطرت ببالى فكرة أن أملأ الدورق من

الزير لكى أراها عن قرب ، سرحت شعرى وفردت ياقة البيجامة ثم خرجت ، التفتت فقلت : مساء الخير .

ــ مساء النور عليك ، والنبى نحن قلقنا نومك .!

ــ لا ، أبدا .. حتى صوت الآنسة أجمل من صوت البلابل .

ــ شكرا .

قالتها مغلفة بابتسامة رائعة فتشجعت وقلت : أتكلم بجد .

واستدرت الى أم دعبس قائلا : الآنسة .. تقرب لكم أيه ؟.

ــ أبو دعبس .. خالها .

ــ آه ، أهلا وسهلا ، من مصر يا انسة نادية . ؟

ــ لا ، من هنا .

ــ ياه !.. وياترى فى سنة ايه ؟.

ــ تقول انت فى سنة ايه ؟.

ــ أقول فى الجامعة مثلا .

ــ لا .

ــ اذن فأنت موظفة .

ــ لا .

وحينئذ سمعنا صوته ينادى من الشارع : افتح يادعبس .

ــ خالك جاء يانادية .

قالتها أم دعبس ونهضت بسرعة ، فنزلت وراءها ، ولا أعرف كم من الوقت مضى وأنا واقف أسترجع كلمة « لا » التى خرجت من بين شفتيها تحمل شحنة عاطفية هائلة ، فترن فى أذنى بنغمة رقيقة تدغدغ كل مشاعرى . غيرت ملابسى ونزلت ، كان جالسا

على الأريكة يبرم المغزل الخشبى باصبعى الابهام والسبابة ، رآنى فوضع المغزل ووقف مرددا : أهلا كمال أفندى ، تفضل ... كيف حالك .؟

ــ الحمد لله .

ــ ودعبس عامل ايه فى المذاكرة .؟

ــ دعبس الآن ممتاز ، يستطيع قراءة الجريدة .

ــ الجريدة .! ياصلاة النبى يا أولاد .

ــ وفى العام المقبل باذن الله سأقدم له فى امتحان الابتدائيــة فيقفز من خامسة الى سادسة .

ــ جزاك الله كل خير يا كمال افندى ، على العمـــوم انت تعتبره ابنك ومسئول منك .

ــ ان شاء الله سيكون له مستقبل عظيم .

ــ هذا بفضل ربنا ورعايتك له .

ــ ربنا يتولانا جميعا برعايته .

مرت لحظة وأنا أفكر فى صمت ثم قلت : « عم أبى دعبس ، الآنسة التى كانت عندكم فى سنة ايه . ؟ »

ــ نادية . ؟ انها ليست فى المدرسة .

قالها وهو يبتسم فعقبت : ظننتها طالبة .

ــ لا ، هى تركت المدرسة بعد الابتدائية .. أصلها مدللة .

ــ طبعا هى من العائلة .؟

ــ ابنة أختى لزم . وأنا الذى ربيتها هى وأختها وأخيها الذى يعمل الآن فى السعودية .

ـ يتيمة مثلى • !
ـ أبوها ربنا « افتكره » وكانت لاتزال ترضع •
ـ طبعا هى ليست مخطوبة • ؟
ـ أمشى لك سكتها •؟
ـ أشعر أنها تناسبنى •
ـ أنت ابن حلال وتستاهل كل خير ، قم بنا نكلم أختى •

كانت سيدة محجبة تميل الى السمنة ، استقبلتنا بحفاوة بالغة ، قدمنى لها ثم فاتحها فى الموضوع فقالت :

ـ من ناحيتى ، فأنا موافقة •• لكن المهم هى ، عن اذنكم اسألها •

غابت عنا بضع دقائق ثم رجعت تبتسم وقالت : مبروك يا أستاذ كمال • لكن قبل مانعلن الخطوبة واجب نأخذ رأى أخيها •

ـ ٣٥ ـ

طلب لى فنجانا من القهوة وابتسم قائلا : « عندى لك مفاجأة سارة ، حزر ، فزر ، •• حتى انتهى من كتابة هذه المذكرة » •

بدأت أرتشف القهوة ، بينما الأفكار تقفز الى رأسى وأنا أستعرضها كما لو كانت صفا من الجوارى الحسان يتمايلن ويرقصن على أعذب الألحان ، مرت لحظات وهو منهمك فى الكتابة ثم وقف ، وهو يرتب الأوراق داخل ملف ، التفت الي وقال :

ـ انتظر ، سأقدم هذه المذكرة الى المأمور وارجع لك حالا •

قلت فى نفسى : « بما أنها مفاجأة سارة فلا داعى لأن أجهد

تفكيرى » . أخذت مجلة كانت على المكتب وتصفحتها حتى رجع النقيب سمير وبادرنى : هل عرفت المفاجأة ؟.

ـ ايه ، سعاد ستأخذ براءة .

ـ قلت لك مفاجأة سارة لك .

ـ قلها وخلصنى .

ـ يعنى غلب حمارك ؟. اسمع ياسيدى ، أنا وعدتك أن أبحث لك عن كتب تساعدك فى رسالة الماجستير .

ـ نعم هذا حصل .

ـ وقد وجدت لك مجموعة قيمة .

ـ المهم أنها تكون فى نفس الموضوع .

ـ أيوه فى صميم الرسالة .

قالها وفتح أحد الأدراج فى مكتبه وأخرج منه أربعة كتب ، قدمها لى واحدا تلو الآخر : « خذ ، هذا كتاب : أسرار الحركة النازية وهذا : تاريخ ألمانيا النازية وهذا : هتلر وايفا براون وهذا : النازية تتحدى العالم ، ثم هذا : كفاحى بقلم هتلر نفسه . »

ـ عندى كتاب كفاحى .

ـ يستحسن أن تطلع على هذه النسخة لأنها ترجمة حرفية ومضافا اليها ملحقا به معلومات هامة عن حياة هتلر .

ـ هى فعلا مفاجأة سارة وأشكرك على هذا الاهتمام .

ـ واذا وقعت فى يدى كتب أخرى تتصل بهذا الموضوع سأحضرها لك .

ـ شكرا .

ـ لا ، العفو ، شد حيلك بقى وعقبال الدكتوراه ٠

ـ باذن الله ٠

ـ أعتقد أنك من حسن حظك أنهم عينوك هنا ٠

ـ لماذا ؟٠

ـ لأنك لو كنت تعمل فى القاهرة كان وقتـــك سيضيع بين الأصدقاء ٠

ـ عموما كل مكان له ميزة وله عيب ٠

ـ هنا ممكن تنتهى من رسالة الماجستير فى وقت أقل ٠

ـ ربنا يسهل ٠

ـ انما ايه السبب انك اخترت هتلر تعمل عنه رسالة الماجستير ؟٠

ـ لا ، الرسالة ستكون عن ألمانيا تحت قيادة هتلر وكيف أنها تحولت من دولة منهارة الى دولة عظمى تحت قيادته ، هـــذه هى النتيجة التى تهمنى ٠

ـ لازلت أرى أن الموضوع غريب عنا ٠

ـ نحن دولة نامية ، يعنى فى مرحلة التكوين وألمانيا تحـــت قيادة هتلر كانت أيضا فى مرحلة بناء أو اعادة تكوين اذن مهم لنا جدا أن نعرف كيف أنجزوا نهضتهم ٠

ـ لذلك وصفوا هتلر بأنه ساحر مجنون ٠

ـ على أى حال هو كان انسانا عظيما ولذلك اعتبروه من المائة الخالدين رغم دمويته ٠

ـ على ذكر الدم ، جابر طلع من المستشفى ٠

ـ وأين ذهب ٠ ؟

ـ فى السجن ، أتحب أن تراه ؟

ـ لا ، يغور .. انما سعاد موقفها ايه ؟

ـ شروع فى قتل .

ـ لكن جابر هو قاتل زوجها .

ـ وليكن ، القانون هو القانون وكلاهما سيأخذ جزاءه .

ـ يقولون الرحمة فوق العدل .

ـ اذا كان القاضى رحيما ستقضى ثلاث سنوات فى السجن .

ـ وجابر ؟

ـ اذا أفلت من حبل المشنقة فأمامه المؤبد .

ـ ٣٦ ـ

كانت زغرودة طويلة رنانة بدأت بها أم دعبس وهى توزع أكواب الشربات ثم تبعها سيل من الزغاريد وكلمات التهنئة والأمنيات الحلوة . وبطبيعة الحال لم تكن سعادتى أقل منهم ، كل مافى الأمر أننى كنت أفكر بطريقة مختلفة .

أحضروا الخطاب الذى وصلهم من السعودية ، كان خطابا قصيرا ينم عن تفكير ناضج ، لكنى بعد ماقرأته ، انتابتنى أحاسيس متضاربة وشردت قليلا : « دخلت فى الجد يا أبا كمال ! » . ورطت نفسك ياجدع ! . تسرعت وهم أسرع منك !. فلوسك قليلة ويلزمك وقت ..

تنبهت على صوت أبى دعبس يسألنى : « خير ياكمال أفندى ، الخطاب فيه حاجة . ؟ »

ــ لا ، أبدا . الخطاب مهذب جدا .
ــ ألف مبروك وربنا يتمم بخير .
ــ عقبال دعبس وأخيه .
مرت لحظات صعبة وأنا أفكر بقلق وألوم نفسى : « كان يجب أن تستعد أولا » .
انتهزت فرصة خروجهن لاستقبال بنات الجيران وقلت له :
ــ وبعدين ياعم أبى دعبس ؟ انه يقول فى الخطاب : سأصل بعد شهر وتتم اجراءات الفرح خلال أجازتى ، فايه العمل وأنا من الناحية المادية ..
علت شفتيه ابتسامة تفيض حبا وحنانا ثم قال وهو يربت على كتفى :
ــ اطمئن يا أستاذ كمال ، أنا سداد برقبتى فى كل ماتحتاجه ، نادية ابنتى وأنت ابنى .

ــ ٣٧ ــ

رأيتهم يتزاحمون على جريدة بين يدى صلاح الذى انهمك فى تصفحها بطريقة توحى أن هناك شيئا هاما . قفز الى رأسى احتمال أن يكون هذا الشىء هو كشوف الاعارة ، فتحت جريدتى بسرعة ، قلبت صفحاتها فلم أجد أية كشوف .
ذهبت اليهم فسمعت محسن يقول بنبرة تهكمية : « أنت متأكد ياعم محمود انك كنت مستيقظا . ؟! »
ــ والله سامعها من الراديو يامحسن بيه ، كنت أتناول فطورى

ولقيت المذيع يقول :

فيه ناس خضر وقعوا فى أمريكا وقال أنهم من النجوم البعيدة قوى .

ــ حاجة غريبة !.

ــ هذا الكلام لو صحيح يبقى العالم كله فى خطر .

ــ تعال ياكمال ، جريدة ايه التى معك ؟

ــ الأخبار ولم أقرأها بعد .

ــ طيب عن اذنك لحظة .

خطفها وبدأ يتصفحها ، ابتسم وهو يدقق النظر في الصفحة الثانية ثم قال بنبرة سعادة :

ــ صح ، صح .. هذا هو الخبر : فوينكس ــ وكالات الأنباء: عثرت السلطات الأمريكية ــ فى أعقاب سقوط جسمين غريبين طائرين ــ على جثتين لجسدين من خارج كوكب الأرض ، لهما جلد فضى ويبلغ طول كل منهما ١٢٠ سنتيمترا ويرتديان رداء معدنيا يبدو أنه التصق بجسديهما من شدة الحرارة ، آكدت هذا النبأ المراقبة الأرضية للاطباق الطائرة ومقرها مدينة فوينكس بولاية أريزونا الأمريكية .

ــ أريزونا ! . والله عال .. عال خالص ، لهم حق التلامذة لما يزوغوا ، تفضل يا أفندى آنت وهو على حصتك .

ــ تعال ياحضرة الناظر ، اقرأ اسمك فى كشوف الاعارة .

ــ كشوف الاعارة .؟ والله كان يبقى لك الحلاوة يامحسن .

ــ خذ .. اقرأ .

ـ أين الكشوف ؟.

ـ بس ، اقرأ هذا الخبر .

ـ ايه ؟! جئتين من خارج كوكب الأرض ؟! ياساتر يارب .. احفظنا ياحفيظ .

ـ لكي لا تقولوا اعارة ولا أجازة !.

ـ صدقت ياصلاح . معك حق ، خلينا هنا .

ـ آه ، هذه البلد أحسن من غيرها .

ـ على الأقل الواحد يموت بين أهله .

وفجأة دق جرس المدرسة فبوغت الناظر وقال معاتبا : يا أولاد الـ .. ايه ! . الحصة خلصت في الكلام ؟.

يا أولاد خلوا عندكم ضمير ، الواحد يكون في نصف ثيابه عندما يأتى المفتش .

ـ ٣٨ ـ

وجدته مهموما عابس الوجه ، يكتب بضعة أسطر ويمزق الورقة ثم يكتب في غيرها ويمزقها .. ظننت أنها هموم العمل . مرت لحظات وهو يكرر هذه العملية ويبدو أنه تنبه فالتفت الى وحاول أن يبتسم :

ـ أهلا ياكمال ، كيف حالك . ؟

ـ الحمد لله .

ـ لماذا لم تشرب الشاى ؟.

ـ ساخن جدا .

ــ زمانه برد ، اشرب •
ــ أرجو ألا تكون مشغولا يوم الخميس القادم •
ــ لماذا •؟
ــ لكى تشرفنى بحضور حفل زفافى •
ــ صحيح • ؟ ألف مبروك •
ــ الله يبارك فيك •
ــ انما قل لى ، هى موظفة •؟
ــ من •؟
ــ عروستك •؟
ــ لا ، هى ست بيت •
ــ أحسن حاجة ، تعرف اننى واقع فى مشكلة حاليا بسبب وظيفة زوجتى •
ــ كيف •؟
ــ صدرت حركة التنقلات ووجدت نفسى منقولا الى أسيوط •
ــ ياه •• متى •؟
ــ سأنفذ النقل بعد شهر ، المهم أننى ذهبت الى مديرية التعليم وطلبت نقل زوجتى لكى يجتمع شمل الأسرة ففوجئت بالروتين والبيروقراطية •
ــ لابد أنهم قالوا : انتظر الى العام القادم •
ــ أنا خرجت عن شعورى وكنت سأضرب الموظف •
ــ العيب فى اللوائح •
ــ ملعونة اللوائح ، المفروض أنها موضوعة لحل المشاكل أم

لتعقيدها ٠ ؟

٠ فى هذه اللحظة وقع بصرى على لوحة جميلة معلقة على الحائط خلف مكتبه فقرأتها :

ـ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ٠

ـ هذا صحيح ، لكن الأولاد ، صعب أنى أغيب عنهم مـدة طويلة ٠

ـ حاول مع المسئولين مرة ثانية ٠

ـ طبعا سأحاول ، لكن لو فشلت سأجعلها تقدم استقالتها ٠

ـ ٣٩ ـ

عندما دققت الباب سمعته يقول : افتحى لزوجك يانادية ٠

كان يرتدى الجلباب الكشمير القضفاض والطاقية الوبر وغبـار السفر يعلو وجهه ٠ دخلت قائلا : السلام عليكم ٠

ـ سلام ورحمة الله وبركاته ٠٠ حمد الله على السلامة ٠

ـ الله يسلمك ياعم أبى دعبس ٠٠ كيف حالك ياماما ٠؟

هكذا كنت أنادى حماتى ، فردت بنبرة سعادة : الله يسـلمك يابنى ، الحمد لله ٠

ـ مالك يانادية واقفة هكذا ٠؟ ٠٠ الغداء بسرعة ٠

ـ عندنا فسيخ تأكل معنا أم ٠٠ ؟

ـ فسيخ ٠ ؟! من أين ٠؟

ـ خالى اشتراه من منيا القمح ٠

ـ وبعدين ياخال ، أنت جمايلك زادت قوى ٠

ـ لا بعدين ولا قبلين .. خذ .

قالها وأخرج ورقة مطوية من جيب الصديرى واستطرد : آنا كتبت الغيط والدار للأولاد .

ـ ألا تشعر أنك ظلمتها .؟

ـ من هى . ؟

ـ أم دعبس .

ـ اسكت ياكمال ، انت لا تعرفها .

كانت حماتى تتكلم بانفعال بينما أطرق أبو دعبس يفكر فى صمت ثم تنهد بعمق وخرج صوته المتهدج فى نبرات بطيئة .

ـ يا أستاذ كمال ، آنا خائف على الأولاد من البهدلة. .. فيه حلم مزعج يطاردنى .

ـ حلم . ؟!

ـ وما أراه فى الحقيقة يفسر الحلم .

ـ طيب ايه مزعج فى الحلم ، احك لى .

ـ فيه الذى اسمه مجدى يمسك كرباجا ويضرب دعبس وزعبلة بقسوة و ..

ـ ضربه فى قلبه البعيد .

قالتها حماتى بغضب وأكمل هو بنوع من الحزن :

ـ وهما يبكيان ويصرخان والدم يسيل على جسميهما من أثر الكرباج .

ـ هذا لأنك أصلا تكره مجدى ، تبقى هى ذنبها ايه .؟

ـ ستكون هى السبب فى دخوله على الأولاد .

ــ ومن أدراك ؟

ــ أنا عارف ولولا انى مستحرمها كنت طلقتها .

ــ لو كل واحد يحلم يفعل مثلك كانت الدنيا خربت من زمان .

ــ غدا ستثبت لك الأيام أننى على حق .

ــ هاهى « ماما » وقد ترملت فى سن مبكرة جدا ، لماذا لم تتزوج ؟

ــ والله بقى أصابعك ليست مثل بعضها .

ــ ياكمال ، اسمع كلامى فأنت لاتعرفها .

هذه المرة كانت نبرة حماتى هادئة كأنها تريد أن تختم هـــذه المناقشة .

قرأت الورقة ، فكرت قليلا ثم قلت له : فيه نقطة مهمة غايت عنك .

ــ ماهى ؟

ــ انهما دون سن البلوغ وبالتالى ستكون أمهما وصية عليهمـا وحينئذ يكون بيديها ..

ــ نعمل أختى وصية .

ــ لا يجوز طالما أن أمهما ..

ــ انك تريد أن تعقدها وخلاص .

قالها بغضب وانتفض واقفا ممتقع الوجه .

ــ اجلس ياعم أبى دعبس .

ــ « أقعد ياسليمان ــ الكلام أخذ وعطاء » .

هز رأسه فى حيرة وجلس محملقا فى باستغراب : ماذا تريد أن

تقول ٠؟

ــأولا نفسى أعرف ، هل تثق فى أم لا ٠؟

ــ أنت لازم تعرف انك واحد مننا وليس هذا فقط ، انما أنت مسئول عن مستقبل دعبس وزعبلة ٠ وذنبهما فى رقبتك ان قصرت ٠

ــ أنا فاهم هذا الكلام جيدا ٠ واحساسى بالمسئولية يجعلنى أقول لك ان هذه الورقة لاتشفع ولا تنفع ٠

ــ يعنى ايه ٠؟

ــ لابد من التسجيل فى الشهر العقارى ٠

ــ ٤٠ ــ

بدأت تلفه بين أصابعها ، تدور بناظريها فى جوانبه تسكب فيه شعاعا وهميا من خيالاتها المشوقة ، ونحن ننتظر كلامها بلهفة كلهفة الأطفال لحواديت الجدة ٠ همست نادية فى أذنى :

ــ يظهر ان فنجانك فارغ ٠

ــ بالعكس ، لابد أن به كلاما كثيرا لدرجة أنها محتارة فيه ٠

ولم أكد أنتهى حتى قالت بنبرة ثقة : ياكمال يابنى ، فنجانك يساوى ألف جنيه ٠

ــ ياه ! ٠ طلع ذهبا ٠٠؟

ــ صدقنى فيه خبر مهم ٠

ــ اسمى طلع فى الاعارة ٠

ــ حاجة أهم ٠٠ حاجة تحلم بها أنت ونادية ٠

التفت اليها فابتسمت وأشارت الى بطنها ، فعرفت : آه ، اذن فهو ولى العهد .

ــ أراه يجلس بينكما كبدر منور .

اخترقت مسامعنا دقات مضطربة وسمعت لدى خروجى أنين بكاء ، فتحت الباب فارتمى دعبس بين ذراعى وانخرط فى بكاء تشنجى ، حاولنا تهدئته ومرت دقائق ونحن نستفسر منه دون جدوى حتى سألته حماتى : أبوك جرى له حاجة . ؟

ــ ما .. م .. مات ، أبويا .. أبويا .. يابويا

دقت على صدرها وصرخت من الأعماق : ياالهوى !.

ثم وقعت على الأرض مغشيا عليها . بعد حوالى ثلاث ساعات كنت قد استخرجت التصريح بالدفن وجهزنا كل شيء . ثم وضعناه فى الخشبة وسرنا الى الجبانة ، سيطر على احساس بالتيتم كما لو أننى فقدت أبى اليوم فقط . ومن منطلق شعورى بالمسئولية أعلنت فى جموع المشيعين :

ــ ياجماعة قبول العزاء قاصر على الدفن وشكر الله سعيكم .

وحينئذ أقبل مجدى يصافحنى : شد حيلك يا أستاذ كمال ، البقية فى حياتك .

ــ حياتك الباقية .

ــ اوع تكون « زعلان » منى .

ــ لا ، أبدا .

ــ لو احتجت أى شيء ، أنا تحت أمرك .

ــ شكرا يامجدى .

فى نفس اللحظة وقع بصرى على حماتى التى أومأت الى برأسها وانسحبت من بين النسوة . ذهبت اليها فكلمتنى بلهجة قاسية : ماكان العشم انك تخيب أملى !..

ــ أنا .؟

ــ أخى لازم يكون له سرادق أكبر من أى واحد فى البلد .

ــ ولزومه ايه السرادق .؟ مانصرفه على السرادق نصرفه على الأولاد .

ــ البلد لها سلوها فلا تجعلنا معيرة .

ــ لا تجعلى أنت كلام الناس يعمينا عن مصالح الأيتام .

ــ ٤١ ــ

فى البداية لم أعرفه ، أحسست بشىء من الأسى وأنا أنظر اليه ، كان يرتدى جلبابا قذرا ممزقا ، العرق والتراب على وجهه ، الطين الأخضر يعلو قدميه :

ــ أهلا يادعبس ، ماذا تفعل .؟

ــ أحول سباخا للغيط .

ــ ألم تذهب الى المدرسة .؟

ــ أصل أمى ضربتنى وقالت : عندنا شغل فى الغيط .

ــ طيب ، لما ترجع لازم تذاكر .

ــ حاضر .

دققت البــاب فخرجت قائلة : أستاذ كمال ، أهــلا وسهلا ... تفضل .

لاحظت أنها تهتم بنفسها أكثر من ذى قبل • دخلت لكى تفتح باب المندرة فقلت لها :

ــ تعالى : هما كلمتان سأقولهما وأمشى •

ــ لا والنبى لتشرب الشاى •

ــ يا أم دعبس ، حرام عليك ماتفعلينه فى الولد •

ــ الولد ، من هذا •؟

ــ ابنك دعبس •

ــ آه ، ابنى أنا •• يعنى أنا حرة فيه وعلى رأى المثل ••

ــ يا أم دعبس خسارة الولد يضيع مستقبله •

ــ ماكنت بوصى عليه •

ــ أهكذا •؟ طيب ايه رأيك أن المرحوم يأتى الى فى المنـــام باستمرار ويوصينى عليهما •

ــ وماله • ابق بالمرة خل المرحوم يزرع لنا الأرض !

ــ ياشيخة ، حرام عليك •• أنت قلبك حجر • ؟

ــ قل لى ، اعمل ايه اذا كنت لم أجد من استأجـره ليزرع الأرض •؟

ــ ازرعيها شرك •

ــ بدلا من أن أشارك •• أتزوج أحسن وعلى رأى المثل : ظـــل رجل ولا ظل حائط •

ــ أهكذا •؟! وياترى من هذا •؟

ــ صاحب القسمة والنصيب •

ــ طبعا مجدى •

ـ وماله مجدى ؟.

ـ أهو الذى سيزرع الأرض ؟!.

ـ على الأقل كاتب الجمعية وألف واحد يتمنون خدمته .

ـ طالما أن الأمر كذلك فاعلمى أن المرحوم كتب الأرض والبيت لدعبس وأخيه .

عضت شفتيها السفلى وعقدت مابين حاجبيها بشىء من الغيظ وهى تنظر الى فى صمت كأنها تريد أن تقول : « أنت السبب » . لكنها بلعت ريقها وقالت بعد تفكير :

ـ على كل حال هما أولادى ومصلحتهما هى مصلحتى .

ـ عين العقل ، ومهم أن مجدى أيضا يعرف .!

ـ لا .

قالتها بفزع فقلت بنوع من التحدى : والله اذا كان شاريك ..

ـ لا أرجوك ، أتريد أن أستمر معه فى الحرام ؟.

ـ ٤٢ ـ

اخترقت أذنى صرخات الوليد فتنفست الصعداء وحمدت الله كثيرا ، خرجت القابلة وهى تبتسم .

وقالت مهنئة : ألف مبروك يا أستاذ ، الذى أعطاك يخلى لك .

ـ شكرا يا ام على .

رأتنى فلمعت عيناها ببريق السعادة وعلت شفتيها ابتسامة رقيقة.

ـ نادية ، كيف حالك الآن ؟.. حمدالله على السلامة .

ـ بنت .

قالتها بصوت مبحوح ، فأخرجت المنديل ومسحت حبات العرق عن جبينها قائلا :

ـ بنت ولا ولد ، كلها محصلة بعضها •• المهم أنت •

ـ نسميها ايه ؟•

ـ نسميها •• اختارى انت •

ـ مارأيك فى اسم « ايناس » ؟•

ـ آه ، على اسم بنت أختك •

ـ ليتها تكون مثل الدكتورة ايناس •

ـ وأحسن منها ان شاء الله ، طيب أنا ذاهب الآن لكى أسجلها فى مكتب الصحة ، ألست فى حاجة الى شىء من البندر ؟•

ـ شكرا ، لا تتأخر على •

كان واقفا أمام دكان البقالة ، التفت فتقابلت عيوننا ، حاولت أن أتجاهله لكنه نادى على ومشينا نتحدث فقال : بس ، أنا « زعلان » منك •!

ـ لماذا ؟•

ـ دعوتك على الفرح ولم تحضر •

ـ الحقيقة يامجدى ، الجماعة كانوا فى حالة « وضع » ولم أستطع الخروج •

ـ على الأقل كنت جئت قلت مبروك ومشيت •

ـ كنت واثقا أنك ستقدر موقفى •

ـ دائما تغلبنى بأسلوبك البليغ •• وتم الوضع والحمد لله ؟•

ـ الحمد لله ، أصبح عندنا « ايناس » •

ـ ايناس ٠؟ ألف ألف مبروك وتتربى فى عزك ٠

عند ناصية الشارع رأيت واجهة منزل أبى دعبس مطلية بلون زاه ٠

ـ لماذا توقفت ٠؟ تعال معى ٠

قالها مجدى وهو يشير الى المنزل أو عش الزوجية فبلعت ريقى بشىء من الأسى وقلت :

ـ مرة ثانية لأنى ذاهب الى مكتب الصحة ٠

ـ عدنى أن تجىء أنت والمدام ٠

ـ باذن الله سنأتى لأن فيه موضوع أريد أن أحدثك فيه ٠

ـ بخصوص ايه ٠؟

ـ دعبس وأخوه ٠

ـ لا ، اطمئن ٠٠ انهما فى عينى ٠

ـ أمهما كانت تقسو عليهما ٠

ـ كان زمان ولن أسمح لها بذلك الآن ، تأكد ياكمال اننى أعاملهما معاملة أب لأبنائه ٠

ـ وهذا هو عشمنا فيك ٠

ـ ٤٣ ـ

اقتربت من الباب فدوى فى أذنى صوت حماتى :

ـ أهذه أم ٠؟ أليس لها قلب ٠؟! آه المجرمة ، والله لازم أفضحها هى والخنزير الذى معها ٠

دفعت الباب ودخلت فوجدتها تضع كمادات فوق عينه اليسرى :

ـ ماذا جرى ؟٠

ـ تعال ، تفرج ٠٠ عين الولد كانت ستضيع ، أنظر ٠

قالتها ورفعت الكمادة فرأيت عينه زرقاء من أثر ضربة أو لكمة قوية ، سألته : من الذى ضربك يادعبس ؟٠

فتنهد وأجاب من بين دموعه : أمى هى ومجدى ٠

ـ وايه السبب ؟٠

ـ طلبت منى أروح الغيط ، قلت لها عندى مذاكرة ٠

ـ آه ، طيب ٠٠ تعال معى ٠

ـ لا ، لن أرجع لزوجها يضربنى ٠

ـ انه بيتك ، أنت وأخوك ٠

ـ لا ، سأبقى هنا ٠

كان الباب مواربا وصوت البكاء يختلط بزفرات الأنين ، كانت تلطم خديها وابنها الثانى يجلس أمامها محملقا فى لاشىء ومتوجعا :

ـ آه ، آه يابويا ، آه ٠ آه ٠٠

ـ مالك يازعبلة ؟٠

ـ والنبى ماتضربنى ياعم مجدى والنبى ٠٠

قالها فى توسل والذعر يكحل عينيه رافعا يديه بذلة أسـرى الحرب ٠

ـ ليس مجدى ياحبيبى ، أنظر ٠ أنظر ٠٠

ـ أنا كمال يازعبلة ٠

ـ خذ ياحبيبى العسلية التى تحبها ٠

ـ قولى له لايضربنى ٠

ـ لن يضربك ياحبيبى •
ـ الولد حصل له ارتجاج فى المخ ، أنت عملت فيه أيه •؟
ـ آه يالهوى ، يامصيبتى ، ياحبيبى يابنى •
ـ أدخليه لكى ينام •
ـ قم ، قم ياحبيبى لكى تستريح •
ـ حاضر ، بس والنبى ماتضربنى ياعم مجدى •
ـ اعملى حسابك ، الولد لو ظل على هذا الحال سأبلغ النيابة •
ـ يالهوى • يالهوى •
قالتها بصرخة محمومة وقفزت تمسك الولد الذى كان قد اصطدم بالحائط •
ـ ولد ، زعبلة •• انظر ، انظر الى ، ألا ترانى •؟
ـ يالهوى ، زعبلة ، رد على ياحبيبى ، ألا ترى صحيح •؟ •• خلاص • عميت ؟ يالهوى •• !
ـ انطقى ، قولى •• عملت ايه فى الولد •؟
ـ آه ياحبيبى يابنى ، هو ، هو الذى ضربه •• آهىء ، اهىء ••
ـ هو من ؟ حبيب القلب ! أنت لو أم كباقى الأمهات كنت جافظت على أولادك وعرفت كيف تحميهم •
ـ من يوم ماعرف ان البيت والأرض مكتوبان لدعبس وأخيه وهو يريد أن يخلص منهما •
ـ وكيف عرف •؟
ـ كان يريد تنازلا منى فقلت له الحقيقة •

ـ لو سمعت كلامى كان الذى جرى ماكان ، انما •• كل شيء انتهى وراح لحاله •• قومى ، قومى ياست هانم اغسلى رأس الواد بماء بارد ، قومى ياظالمة •

ـ أعمل ايه بس ، اعمل ايه •؟

تمتمت بها وانتفضت واقفة والدموع تجرى من عينيها ، بدأت تصب الماء على رأسه وهو يصرخ ويبكى •

ثم جففت رأسه ومشطت شعره ، حملق فى بنوع من الادراك فسألته : زعبلة •• من أنا •؟

ـ أنت الأستاذ كمال •

ـ شاطر ياحبيبى شاطر •

ـ خذ العسلية يازعبلة •• الحمد لله •

ـ بهذا الشكل ، أنت غير جديرة بأن تكونى أما ويستحسن أن يدخلا ملجأ الأيتام •

ـ ملجأ وأنا عايشة •! لا ، لا يا أستاذ كمال •

ـ يبقى لازم تكونى شديدة مع مجدى •

ـ أهلا ، أهلا ياكمال •

قالها مجدى بنبرة خبيثة ودخل يمد لى يده وكأنه لم يسمع شيئا ، صافحته فضغط على يدى قائلا وابتسامة صفراءتعلو شفتيه:

ـ اجلس ، اجلس •• اعملى « شاى » يا أم دعبس •

ـ لا شكرا ، لا وقت عندى •

ـ اجلس ، عندى لك كلام كثير •

ـ والله أنت عارف البيت ، ابق تعال •

غلبني النعاس وأنا جالس أمام التليفزيون وتنبهت على صـــوت نادية : كمال ، قم لتنام ويستريح جسمك •

ــ هه ، لماذا أطفأت التليفزيون •؟

ــ برامج مملة بضيوفها وأحاديثهم •

ــ ياه •• أشعر أن جسمي كله مفككا •

ــ قلت لك ماما عارفة السكة فلم ترح نفسك وذهبت معها •

ــ الواجب يانادية ، أنت عارفة أن مامتك حساسة قوى للحاجات المتصلة بالذوق ••

ــ كان الواجب أن حسين هو الذي يأتي ليأخذها •

ــ ما أنت عارفة أن زوج أختك رجل أعمال ومشغول باستمرار •

ــ هيا بنا •

ولم أكد أضع رأسي على الوسادة حتى غرقت في النوم ورحت في دنيا ثانية •

ملأت جرة الماء من النبع ثم حملتها ومشيت ، رأيته قادما مـــن بعيد ، قصير القامة ، يسير في انحناء ويداه معقودتان خلف ظهره ، له شاربان مربعان وخصلة شعر تتدلى على جبينه ، عينان عسليتان تشعان بالذكاء ، يرتدي بذلة كحلي بلا نجوم ، قميص أبيض منشى ، ربطة عنق خضراء بها وردة صغيرة • وضعت الجرة ووقفت خلف جزع شجرة أراقبه محدثا نفسي :

ــ « أهذا هو هتلر ؟ فعلا هو ، لست تائها عن ملامحه ، أيختبىء

هنا والعالم كله يعتقد أنه انتحر ؟ !

أهذا هو مجرم الحرب العالمية الثانية ؟ ياله من حقير ، ومع ذلك فهو مسكين .. سجن نفسه فى هذه الأيكة منذ عام ١٩٤٥ .. لكنه يتحرك بنشاط زائد وحيوية فائقة .. كيف أحتفظ بشبابه هكذا أكثر من ثلث قرن ؟ شىء غريب .. ياالهى ، انه متجه الى هنا ، يدقق النظر كأنه يرانى ، فعلا هو قادم نحوى ، يجب أن أهرب من هذا المجنون » .

ــ كمال .

أخرستنى المفاجأة وألجمتنى فى مكانى مشدوها لا أصدق ما أرى .

ــ تعال .

قالها وهو يبتسم واستطرد بنبرة فيها كثير من الود : ألا تعرفنى . ؟

ــ من أنت .؟

ــ أصحيح لا تعرفنى .؟

ــ قل لى من أنت . ؟

ــ أنا أدولف هتلر .

ــ وماذا تفعل هنا .؟

ــ سنتعاون من أجل سلام البشرية وأعمال الخير .

ــ أية أعمال تلك .؟

ــ انقاذ مايمكن انقاذه ، فالأرض مهددة بحرب عالمية ثالثة والسلام فى خطر .

ـ اذا كانت هذه ارادة الله فلا ..

ـ والطبيب لايمنع ارادة الله ، لكنه يفعل ما عليه .

ـ وماذا عليك أن تفعله ؟.

ـ لست وحدى ، هناك مجموعة من العلماء والمفكرين فى أجزاء مختلفة من الأرض ، يتعاونون معى فى تنبيه العالم والتحـذير من الكارثة .

ـ أنت الآن تذكرنى « بالفريد نوبل » .. اخترع وسائل الدمار ثم ندم ورجع يبحث عن السلام المفقود ويخصص جزءا من ثروته لمن يعمل على اعادة السلام .

ـ حاول أن تنسى حياتى السابقة .

ـ لكن جرائمك لن تمحى من ذاكرة التاريخ .

ـ ظلم ، ظلم .. لماذا خصونى بهذه الجرائم دون بقية زعمـاء العالم ؟ ألأننى هزمت .؟!

ـ لأنك الذى أشعل الحرب العالمية الثانية .

ـ أبدا . ونداءاتى العديدة من أجل السلام خير دليل على أننى لست المسئول عن اشتعال الحرب .

ـ فمن المسئول اذن ؟.

ـ سوف يثبت الدمار الرهيب الذى سيحدث مستقبلا أن الذى يتحمل المسئولية الحقيقية هم برابرة الغرب الأنجاس .

ـ ولم تتعب نفسك الآن طالما أن الدمار سيحدث لا محالة .؟!

ـ فلننقذ مايمكن انقاذه .

ـ الله هو المنقذ .

ـ هذا لايمنع أن نفعل ماعلينا .

ـ تحدث عن نفسك .

ـ ستندم ياكمال .. قبل ذلك خدعنى أفضل أصدقائى وعرفت معنى الخيانة . أما أنت فسوف أنتقم منك ، وستندم كثيرا .

ـ اتركنى وشأنى ، اتركني .. قبضتك تخنقنى ، انك تخنقنى .

ـ كمال ، كمال .. مالك ياخويا ، فيه ايه .؟

ـ هه ، نادية .. كابوس ، كابوس يانادية .

ـ قم فتوضأ وصل ركعتين لله حتى يزول عنك .

ـ اللهم اجعله خيرا .

وفى هذه اللحظة دق الباب وكانت الساعة تشير الى العاشرة والنصف مساء ، خرجت وأنا أردد باستغراب :

ـ من ياترى الذى جاء في هذا الوقت .؟

وفتحت الباب فقال : مساء الخير يا أبا كمال .

ـ أهلا مجدى .

ـ ممكن أدخل .

ـ تفضل .

ـ ٤٥ ـ

وقف يتنمر بعينيه على محتويات الغرفة ثم قال بنبرة نفاق :

ـ دائما ذوقك سليم ياكمال .

تملكنى الغيظ فنفخت بشىء من الضيق وجلست صامتا ، فرمقنى بنظرة خبيثة وقال :

ـ يظهر اني جئت فى وقت غير مناسب •
ـ أنا فعلا كنت نائما •
ـ آه • الموضوع أصله مهم ومستعجل و •• أين الحاجة ••؟
ـ الحاجة من ••؟ حماتى ! فى مصر عند ابنتها الكبرى •
ـ كنت أحب انها تكون موجودة •
ـ لماذا ••؟
ـ طيب اسمع ياكمال ، اعطنى الأوراق التى عندك •
ـ أوراق ماذا ••؟
ـ أوراق دعبس وزعبلة المسجلة فى الشهر العقارى •
ـ ها • ها • هاى •• أتعتقد أننى ساذج الى هذه الدرجة ••؟
ـ فهمتنى غلط ياصاحبى ، أنا قصدى أطلع عليها •
ـ وليس لك أن تطلع عليها •
ـ هل نسيت أننى مسئول عنهما وعن أمهما ••؟
ـ ولم أنس أنك تطمع فيهما •
ـ كمال ياحبيبى ، نحن أصدقاء وفيه مثل يقول : « يابخت من نفع واستنفع » •
ـ لست أنا الذى يطمع فى مال الأيتام •
ـ طول عمرك ستعيش قفلا وتموت قفلا •
ـ لو لم تكن فى بيتى ••!
ـ بقى لك بيت ياتحفة !؟
قالها باحتقار وزغدنى فى صدرى فقلت معاتبا : هى حصلت أن تمد يدك علي •

ـ وأقتلك لو وقفت فى طريقى •
ـ انت يامجدى •؟ آه ياسافل ، قم ، أخرج من بيتى •
ـ طيب خذ •

دفعنى بكل قوته وارتمى فوقى يسدد فى ضلوعى لكمات ثقيلة ، وفى اللحظة المناسبة دخلت نادية ممسكة بيد « الهون » النحاسية الغليظة ، ضربته على رأسه فوقع مغشيا عليه والدم يسيل بغزارة ، رمت يد « الهون » ووقفت مشدوهة تحملق فيه بصمت الجنون ؛ حاولت أن أوقظه بلا جدوى ، صرخت بفزع :

ـ مات • ؟! مات •؟
ـ هس ، اسكتى •

قلتها وأنا أمسك جبهتى من الصداع ، دارت بى الدنيا وشعرت بأننى قد وصلت الى نهاية كل شىء ، تنبهت على صوت دعبس الذى وقف يحدق ويفرك عينيه قائلا بنبرة من يريد أن يطمئن :

ـ ايه ، هو مات خالص • ؟!

سمعت طرقا على الباب ، ارتبكت ، مرت لحظـات والطـرق يتزايد ، فنزلت وأنا ألهث ، فتحت الباب ، كانوا بعض الجيران ، قال أحدهم : حصل ايه عندكم يا أستاذ •؟

ـ أبدا ، لا شىء •
ـ سمعنا صراخا •
ـ لا ، ليس من عندنا •• تفضلوا •
ـ شكرا ، شكرا •

كانت تبكى بنوع من الذهول ، أخذتها من يدها وخرجنا مـن

الغرفة ، حاولت أن أتمالك أعصابى واركز تفكيرى فى شىء محدد .

ـ اسكتى . ولا مبسوطة لهذه الفضائح .

ـ كان قصدى أبعده عنك ، ماكنت أريد قتله .

ـ المهم . ماذا نفعل الآن . ؟

ـ هيا نضعه فى جوال ونرميه فى البحر أو نحفر وندفنه .

ـ سيخرج عفريت من تحت الأرض ويرشد عنا .

ـ يعنى خلاص .! اهىء .اهىءياحبيبتى يابنتى ..

ـ اسكتى لا تفضحينا ، اسكتى . أنا لن أتخلى عنك .

ـ يعنى نقضى عمرنا فى السجن .

ـ لا . سنهرب من هنا .

ـ ٤٦ ـ

عند منتصف الليل ، خرجنا تحت جنح الظلام ، نهرول بخوف وحذر ، أعمدة النور ذات اللمبات الشاحبة تفزعنا كأنها المشانق ، حركتنا المضطربة تثير شهوة الكلاب للنباح فتخفق قلوبنا بعصبية ، بكت ايناس بصوت مرتفع ، تملكنى الغيظ فقلت هامسا : « سدى فمها » . خارج القرية ، الظلام حالك ، بدأت أشعر بنـــوع مـــن الأمان ، وصلنا الى كشك المرور ، كان العسكرى يغط فى نوم عميق ، وقفت على بعد خطوات من مكتبه ، أفكر بشىء من الارتباك اقتربت قائلا : احم ، احم .

ـ من ..؟ ماذا ..؟ نعم .

ـ مساء الخير ياحضرة الصول .

ـ أهلا وسهلا ، أى خدمة ..؟

ـ أرجو أن تساعدنا فى ركوب سيارة متجهة الى القاهرة .

قلتها وأنا أضع فى يده ورقة من فئة الربع جنيه ، دسها فى جيبه وقال : كم الساعة معك الآن ..؟

ـ الثانية عشرة الا ربعا .

ـ فيه سيارة تمر كل ليلة فى هذا الوقت ، تعال .

قالها وخرج ينظر للأضواء الآتية من بعيد .

كانت سيارة نقل ضخمة ، أطل سائقها محييا بصوت محشرج :

ـ مية مسا .

ـ خذ ياشربيني ، خذ الجماعة معك .

ـ آه وماله .

رفعت دعبس الى الصندوق الممتلىء بأجولة لم أتبين محتوياتها . ثم ناولته حقيبة الملابس وركبت الى جانب السائق والى يمينى جلست زوجتى تحمل ايناس ، أضاء كابينة السيارة ونظر الى بطرف عينه وهو يسأل : الى أين العزم ..؟

ـ هه ، نحن .. الى روض الفرج .

ـ لا ، أنا لحد شبرا .

ـ ربك يدبرها .

ـ وايه السبب انكم تأخرتم هكذا .. ؟

ـ والله ، المدام .. أبوها فى حالة خطيرة .

وكأنها كانت تنتظر هذه الفرصة فانفجرت فى بكاء حار ، فتأثر السائق وقال : « لا حول ولا قوة الا بالله •• ربنا يأخذ بيــده ويشفيه ، اسكتى يا ابنتى وخلى عندك ايمان بالله عز وجل ، ادعى له أحسن •• وأنا سأوصلكم لحد البيت » •

ـ ربنا يسلم طريقك •

قلتها وأنا أركز عقلى محاولا جمع أفكارى المشتتة •

ـ ٤٧ ـ

توقفت السيارة على جانب الطريق حيث توجد خيمة شبه مظلمة ، التفت قائلا : نمون هنا الأول ونعمر الطاسة •

وفى نفس اللحظة سمعت من يقول : شربينى وصل يارجالة •

وخرج من الخيمة خمسة رجال حفاة يرتدون الجلابيب •

ـ ألا تحب أن تأخذ شايا •

ـ لا ، شكرا •

نزل متجها الى الخيمة ، وقف يتحدث مع الرجال الخمسة وأشار الى الأجولة قائلا : كفاية عشرون الليلة •

ثم دلف الى الخيمة قائلا بصوت مرتفع : مية مسا •

اقتربت عربة « كارو » وبدأ الرجال يحملونها من أجولة السيارة• غلى الدم فى عروقى ونفخت من الغيظ :

ـ أليس حراما أن قوت الشعب يسرق هكذا •

ـ اسكت ياكمال وخلينا فى الخيبة التى وقعنا فيها •

ـ ربنا يستر ، تبقى داهية لو كان مراقبا وأمسكوه ونحن معه •

ـ انى أموت فى جلدى من الخوف •

مرت لحظات من القلق والتوتر حتى استدارت العربة الـكارو وابتعدت بما عليها من أجولة ، ثم خرج السائق من الخيمة حاملا صفيحة ماء ، أفرغها فى مقدمة السيارة وركب قائلا :

ـ هيا بنا ، توكلنا على الله ، النهاردة كم فى العربى ؟•

ـ تقريبا ٢٢ •

ـ لذلك تأخر القمر •

كان الطريق موحشا تحيطه الأشجار العالية من الجانبين وضوء السيارة يخدش الظلمة فى حياء •

سكت برهة ثم عاد وسألنى : وأنت ، ماذا تعمل ؟•

ـ مدرسا •

ـ الله يكون فى عونكم ، أنا أعذركم •• الجيل طالع « مشيطن » هذه الأيام ولا يهتمون الا باللعب والفرجة على التليفزيون •

ـ فعلا •

ـ أولادي ، وضعت أصابعى فى الشق منهم ، عندى ولد رسب فى الاعدادية ثلاث مرات •

ـ المفروض يكون فيه رعاية من البيت فى المـذاكرة بجـانب المدرسة •

ـ أنا فى شغلى كما ترى ليلا ونهارا فلا أراهم الا من الجمعـة للجمعة ولا أقسو عليهم حتى لايكرهوننى •

ـ وأمهم ؟•

ـ تعبت معهم ، وبيني وبينك أنتم غلبتوا الجزارين في حكاية الدروس الخصوصية .

ـ أنا شخصيا لا أعطي دروسا .

ـ تبقى غلبانا .

ـ أركز كل جهدي في الفصل .

ـ ومن مثلك ..!؟ الكل يريد أن يعيش ويتحايل في مص دماء الآخرين ، العيشة نار ، تعمل ايه .. أنا ومن بعدي الطوفان .

ـ لو كل واحد يراعي ضميره ..

ـ ضمير ايه ياسي الأستاذ ! ضمير ايه ، يووه ، انت ظهرت ياقرد قطع .!

ـ نعم . ؟

ـ ألا ترى هذا الكونستابل .؟ .. عامل « أبونيه » معي ، كل ليلة ينط لي مثل « أبي فصادة » . ويلهف المعلوم .

حينئذ كان الكونستابل قد سبق السيارة وأمره بالتوقف ، ثم نزل عن الموتوسيكل وجاء يسأله :

ـ رخصتك وخط سيرك .. من هؤلاء .؟

ـ مساء الخير ياحضرة الصول ، جماعة بلدياتي .

قالها السائق ومد يده بورقة نقدية ، خطفها الكونستابل وانصرف قائلا : مع السلامة .

***

تملكني احساس بأن أخي قد يتخذ موقفا سلبيا ، لكنني محتاج

الى بعض الوقت لكى أحدد الخطوة القادمة ، ضغطت زر الجرس مرتين ، سمعت صوت ارتطام شيء .

ـ من ..؟

قالتها أشجان زوجة أخى بنبرة فيها نوع من الدهشة فقلت :

ـ أنا كمال .

ـ ألم يكن فيه نهار سيطلع ..؟!

انغرست هذه العبارة فى قلبى كخنجر ملتهب ، فتحت البـــاب ووقفت ترمينا بنظرة كئيبة وتلوى شفتها السفلى بامتعاض فدخلت قائلا : تعالى يانادية .. أدخل يادعبس .

ـ من يا أم وفاء ..؟

ـ أخوك .

ـ كمال ..!

قالها بمزيج من اللهفة والاستغراب وجاء مرحبا :

ـ أهلا ياكمال ياحبيبى ، ايه .. الوقت متأخر قوى ، مالك .. حصل ايه ..؟!

ـ نسيت أقدم لك نادية زوجتى ..

ـ أهلا وسهلا ، كمال ، انت شكلك متغير .. ايه الحكاية ..؟

ـ الحقيقة ، أنا واقع فى مشكلة كبيرة وعشمى انك تساعدنى أو على الأقل تتحملنى حتى أجد مكانا ..

ـ كمال ، حصل ايه .. قل لى .

أطلعته على ماحدث ، فضرب الهواء بكفه وانتفض واقفا يهــز رأسه بعصبية وينظر للاشيء بنوع من الذهول .

خرج الى البلكونة ونادى على فقمت اليه ، أمسكنى من كتفى وهزنى بقوة :

ــ اسمعنى جيدا ، ان كانت هى قتلت فشىء طبيعى أنهــا تأخذ جزاءها ، أما أنت ..

ــ انها كانت تدافع عنى .

ــ كان ممكن تبعده عنك من غير ماتقتله .

ــ هى لم تقصد قتله .

ــ والدبة التى قتلت صاحبها لم تكن تقصد .

ــ أنا لا يمكن أتخلى عنها .

ــ يعنى تضيع مستقبلك .؟!

ــ اذا تخليت عنها سأعيش نادما عليها بقية عمرى .

ــ مع الأيام ستنسى .

ــ أنسى كيف .؟ هل أنسى انها تعذبت لأنها أنقذت حياتى .

ــ ياكمال ارجع لعقلك وحافظ على مستقبلك .

ــ مستقبلى معها ولا تنس اننى قلت للجيران : لم يحدث شىء .

ــ خلاص ، أنت حر .. عقلك فى رأسك تعرف خلاصك ، انما تذكر أن لى بناتا ويهمنى أحافظ على سمعتهن .

ــ يعنى ايه .؟

ــ لن أنتظر حتى يأتى البوليس فيقبض عليكم هنا وانفضــح فى الحتة .

ــ وناوى تعمل ايه .؟

ــ عندما يطلع النهار سأوجز لكم سيارة تنقلكم الى ابن خالتك

فى أم المصريين ، هناك أرياف وتستطيع أن تختبىء كما يحلو لك .

— ٤٨ —

كانت صدمة قوية ملأت حلقي بمرارة العلقم ومع أنني حاولت جاهدا الا أجعلها تؤثر على معنوياتى الا أننى كنت خائفا أن تتكرر من ابن خالتى ، مرت بخيالى فكرة أن تكون الجريمة قد اكتشفت وظهرت فى الصحف بالخط العريض .

حينئذ كانت السيارة تمرق بنا فى شارع طه حسين بالجيزة ، رأيت بائعة صحف ترتب بضاعتها على الرصيف ، طلبت من السائق أن يتوقف ونزلت اليها : اعطنى الصحف الثلاث .

ـ أنت .؟

ـ الله . ! سعاد ..؟

ـ أستاذ كمال .

صافحتنى بحرارة بالغة وسألتنى : وماذا جاء بك هنا الآن .؟

ـ الظروف ياسعاد . وأنت .؟

ـ أنا أبيع الجرائد هنا وزوجى بواب هذه العمارة .

ـ زوجك .؟

ـ نعم ، رجل نوبى ظريف ودمه خفيف .

ـ أنت أصيلة وطيبة وتستاهلى كل خير .

ـ أنا ملاحظة ان شكلك ـ ولا مؤاخذة ـ مبهدل ، من هؤلاء الذين معك فى السيارة .؟

ـ زوجتى وابنتى ودعبس .

ـ وماذا جاء بكم الى هنا الآن ؟

ـ سعاد .. قلت أن زوجك من النوبة ؟

ـ نعم ، نعم .

ـ ألا يمكنه أن يساعدنا فى الهرب الى هناك ؟

ـ الهرب ! ياحسرتى ! أستاذ كمال .. هات الجماعة وتعال .

فى الحجرة الضيقة تحت سلم العمارة جلسنا نفكر ونستعرض أبعاد المشكلة والاحتمالات الممكنة ، بينما انخرطت زوجتى فى البكاء ، فأسكتتها سعاد :

ـ اسكتى ياعبيطة ، أنت لا كان قصدك تقتلينه ولا حاجة ، انما هى ارادة ربنا ونفذت على يديك ، خليك يا أختى مع زوجك ولا تقولى أمى ولا أختى ، قال على رأى المثل : ان جاءك البحر طوفانا حط ابنك تحت رجليك .

ـ اسمع ياولد العم .

قالها عم ادريس ذو البشرة الداكنة جدا ، والعمامة الضخمة ، ناصعة البياض ، واستطرد وهو يرمقنى بنظرة ثاقبة من عينيه البراقتين كعينى الفهد :

ـ الحياة فى النوبة الجديدة لن تنفعكم ، قاسية كثيرا ومليئة بالوحوش المفترسة والأفاعى .

ـ ياه ! وبعدين ياعم ادريس ؟

ـ الواحات .. الواحات مناسبة كثيرا .

ـ وكيف نصل اليها ؟

ـ يا ادريس .

ـــ نعم ياسعادة البيه .

نهض خارجا بسرعة قبل أن يأتي هذا « البيه » ويرانا .

ربتت سعاد على كتف زوجتي وقامت : « سأترككم الآن لكي تستريحوا ، اطمئنوا ، ادريس شهم وسيساعدكم فلا تحملوا هما » .

خرجت وأغلقت الباب كان دعبس ممددا على السرير وغارقا في نوم عميق ، التفت اليها فقالت : أنا خائفة .

ـــ سعاد بالذات لن تغدر بي .

ـــ زوجها قد يفعلها ويبلغ عنا .

ـــ اطمئني يانادية ونامي لكي تريحي أعصابك حتى ندبر أمرنا .

ـــ لا ، قم أنت فاسترح على السرير بجانب دعبس .

ـــ أنا فعلا نفسي أنام ولو خمس دقائق .

أخذت نفسا عميقا وتمددت على الحصيرة ثم أغمضت عيني .

ملأت أذني أصوات اليكترونية مزعجة ، أحسست بارهاق شديد ، أعصابي مفككة وشعور بالتنميل يسري في أطرافي كالمخدر ، حاولت أن أقوم ، فلم أستطع ، رفعت ذراعي في بطء وحذر ، بدأت أحرك أصابعي فرأيت شيئا مخيفا ، أظافري طويلة كمنقار الهدهد وبشرة يدي مكسوة بطبقة من التراب الناعم ، أحسست أنها ليست يدي وتملكني الرعب ، أغمضت عيني وحاولت أن أنسى ، نظرت ثانية فتأكدت من صدق ما رأيت ، فتحت النافذة وملأني الرعب : شوارع كاملة غاصت في الأرض ، العمارات الشاهقة انهارت ، المآذن طارت ، الأنقاض تتناثر حولها جماجم

بشرية ، مخلفات صناعية ، كلها مناظر كئيبة تبعث على الرعب ، لمحت على مدى النظر هوائيات اللاسلكى ، أطباق الرادار تعلو أسطح زجاجية مائلة .. المنازل قصيرة مثل أكشاك بيع الصحف . رأيت ميدانا فسيحا يشبه المطار ، خرجت متجها اليه ، ياهول مارأيت : الناس مشوهون ، جميعهم كلل الشيب رءوسهم ، وقفت أحملق بمزيج من الدهشة والأسى :

ـ أهذا معقول . ؟! شيء فظيع أن تتحطم كرات الدم هكذا تحت الجلد فتمتلىء أجسامهم بالبقع السوداء الزرقاء .. ياالهى ، مالهم يمشون فى كسل وقد تبلدت مشاعرهم . سرت أتفرج عليهم ولا أجرؤ ، على التحدث مع أحدهم ، ويبدو أنهم كانوا يحملون لى نفس الشعور بالخوف ، نظراتهم يشوبها الحذر ، همسهم خافت بلا مبالاة .

واحد منهم أشار الى وعلى شفتيه آثار ابتسامة ، يسير نحوى ، أجرى فيناديني : كمال ، كمال .

لحق بى فأحسست بعمق المأساه وأنا أنظر فى وجهه الأرقط المتورم ، ابتسم وقال :

ـ كمال ألا تعرفنى .؟ أين كنت .؟

ـ تحت الأرض .

ـ أين زوجتك ، أرجو أن تغير نظرتها للانجاب .. كمال .. البشرية الآن مصابة بحالة عقم . وأنت نجاك الله من الحرب وأهوالها فيمكنك أن تنجب أطفالا .. قل لى أين زوجتك .؟

... أهى تحت الأرض .؟

نعم ، نعم .. أليس عندكم ماء
ــ عطشان .؟ تعال معى ، بيتى قريب .
المنزل من حجرة واحدة ، مكيف الهواء ، بها كل شىء : سرير معلق ، مقعد وثير ، مائدة مستديرة ، أجهزة مختلفة الأشكال والألوان ، زجاجات وكؤوس ..
أشار الى المقعد : تفضل .
ثم وضع فى يدى ثلاثة أقراص وناولنى الكأس محذرا : ان كنت عطشانا بدرجة كبيرة فلا تشرب مرة واحدة .
ــ ماهذه الأقراص !.
ــ وجبة غذائية .
ــ أتعيشون عليها . ؟
ــ لا ، انها غالية جدا .. هذه كمية بسيطة ، وصلتنى أخيرا من أمريكا .
ــ أمريكا ! . آمازلتم تلهثون وراءهم .؟
ــ للأسف .. قضيت عمرى فى خدمتهم وشاركت فى انجاح تجاربهم وعندما صعدوا وبنوا مدنهم على الكواكب الأخرى ، تركونى وفضلوا من تجرى فى عروقهم دماء الغرب .
ــ شىء طبيعى .. هل نسيت مافعلوه بزنوج أفريقيا .؟
ــ يبدو أننا خلقنا للأرض فقط .!
ــ لا ، انهم عاشوا للأرض باخلاص فارتفعوا الى الكواكب أما نحن فقد زاغت عيوننا الى الفضاء قبل أن ترسخ أقدامنا على الأرض .

ــ كنا كمن رقصت على السلم .

ــ أستأذن الآن وأشكرك على هذه الحفاوة .

ــ لا ، أنت لن تخرج .

ــ أرجوك اتركنى أمشي .

ــ اجلس ، لن تخرج .

ــ اتركنى ، ابعد عنى .. دعنى وشأنى ،ابعد .. وجهك قبيح .. أريد أن أعيش ، اتركنى ..

تنبهت على صوت زوجتى : قم ياكمال ، اصح .. مالك .؟

ــ هه ، كابوس يانادية ، اللهم اجعله خيرا .. عم ادريس أين هو . ؟

ــ من ساعة ماخرج هو وسعاد ..

ــ أنا جئت أهه .

قالتها ودخلت وهى تحمل لفافة كبيرة ، أفرغت السلامون والجبن والزيتون فى الأطباق ، رصتها مع الخبز على الطبليــة ثم نادت زوجها الذى قال :

ــ اسمع ياولد العم ، أنا لا أحب أن أعزم ، البيت بيتــك .. هيا ، بسم الله .

خيم الصمت للحظات ثم نظر الى دعبس وقال :

ــ « زمان ، زمان قوى ، كنت في سن هذا « الدعبوس » ومات سيد الوالد ، قالوا توفى بالسودان ، كان تاجرا .. وتزوجت أمى ولد عمها ، كان هو بواب هذه العمارة ، أحضرونى الى هنا وكان أصعب شىء ، فارقت النوبة والصحبة الى الأبد ، تركت

النخيل والنيل ، والسمك والدوم ، القمر والشعير .. حزنت على هذه الأيام الحلوة رغم بأسها وشقائها ، والحقيقة ياولد العم ، النبى آدم حزن على أيامه وذكرياته ولا يدرى أن الرب فى التدبير، بعنى لما بنو السد العالى غرقت النوبة ونقلوا الأهالى «شعتفوهم» فى الصحارى والجبال ، الوديان والواحات ، أحسن شىء أن البنى آدم يرضى بقسمته ويعرف أن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين . » .

ــ سفرة دائمة ياعم ادريس .

ــ كل ياولد العم ، كل .

ــ شكرا ، شبعت والحمد لله .. أنا مقتنع بكلامك يا عم ادريس ، لكن ايه الحل .. وكيف نذهب الى الواحات ؟

ــ أيوة ، أنا فكرت كثيرا فى موضوع الواحات ، أول حاجة قطار الصعيد .. وفى محطة أسيوط تنزلون .

ــ أسيوط .؟ لا ، هناك ضابط يعرفنى .

ــ وهو ماله ومالكم ، كيف سيعرف أنــكم فى أسيوط ، خلى بالك معى ، موقف السيارات المتجهة الى الواحات تسأل عنه .. وتركبون الى واحة أولاد سعيد ، وحالما تصل اسأل عن العرجاوى .

ــ من . ؟!

ــ العرجاوى ، اسمه العرجاوى ، ولد عمى ولما يعرف انك من طرف ادريس عبد المولى سيقوم بالواجب .

ــ والقطار موعده الساعة كم .؟

ــ السيارات المتجهة الى الواحات تخرج من أسيوط فى الصباح

الباكر ، يبقى أحسن قطار هو الذى سيقوم من مصر فى الحادية عشرة مساء .

— ٤٩ —

ودعتنا سعاد بالقبلات والدموع ، وضعنا الحقائب فى مؤخرة السيارة وركب معنا عم ادريس ، كانت الساعة تشير الى العاشرة مساء ، ومع أننى اجتهدت فى تغيير مظهرى وارتديت الجلبـــات الا أن قلبى كان يخفق بشدة وتملكنى احساس بالخوف مـــن المستقبل المجهول الذى ينتظرنا . بعد حوالى نصف ساعة دخلت بنا السيارة الى ميدان رمسيس ، وما ان وقع بصرى على مبنى محطة مصر حتى أصابنى شىء من الاضطراب وتخيلت أن العساكر سيقبضون علينا داخل المحطة ، توقفت السيارة ونبهتنى زوجتى أن أسـارع بدفع الحساب ، أخــرج عم ادريس الحقائب فحملنـاها وسرنا الى الرصيف رقم ٧ ، الذى كان يعج بالحركة . النـاس يتزاحمون بأحمالهم الكثيرة ، يتصايحون مع أقاربهم ، وسيارات الصحف تتسابق لافراغ شحنتها على الرصـيف لتـذهب وتأتى بالمزيد ، الحركة متصلة ، الضوضاء عالية ، الدقائق طويلة ، ثقيلة كئيبة .. أخيرا ظهر القطار وتدافعت أمواج من البشر ، فجأة لم أر عم ادريس ، اختفى أثناء معركة الركوب ، لم أدر كيف قفـز داخل القطار وأطل من الشباك ينادى علينا ملوحا بعمامته التى وقعت بسبب الزحام أو ربما خلصها لكى لاتضيع ، ناولته الحقائب من الشباك ، فوضعها على الكرسى وحجز لنا الأماكن حتى صعدنا

اليه ، فوجدناه قد اشترى زجاجات المياه الغازية المثلجة ، شربناها وظل جالسا معنا حتى الدقائق الأخيرة ، ثم قام فصافحنا وقال :

ــ لا تنس واحة أولاد سعيد والعرجاوى ولد عمى ، بلغه سلامى وأشواقى .

سمع صوت محرك الديزل فنزل ووقف على الرصيف ، فى عينيه نظرة حنان وحب وعلى شفتيه ابتسامة فاترة ، بدأ القطار يتحرك ، فاقترب من الشباك ألقى الى طاقيته البيضاء قائلا : تذكرنى بها .

ضاعت منى الكلمات ، اختنق صوتى وسالت من عينى دموع ساخنة ، رأيت حياتى كشريط للذكريات ، يدور فى رأسى مصحوبا بدقات حزينة وأصوات مزعجة كصراخ البومة أو لعله صوت القطار نفسه ، تواردت على ذهنى صورة مجدى ، تنطبع بملامح شيطانية : يضحك ، يكشر عن أنيابه ، يخرج لسانه ، يحملق فى غضب ، يتأوه ، يقهقه ، يقع مغشيا عليه ويسيل الدم من رأسه .

ــ كمال ، اقفل الشباك .

كان الجو باردا والريح تلسع وجوهنا ، الشباك بلا زجاج ، حاولت أن أرفع « الشيش » دون جدوى ، فتحت الحقيبة الكبيرة أخرجت البطانية :

ــ خذى ، ضعيها على كتفيك .

ــ أنا حاملة هم ايناس .

ــ غطيها بالبالطو وأنت يادعبس خذ ، البس هذا البلوفر .

سرحت مع خواطرى ، تذكرت أحلامى السابقة بأن آخذ فرصتى فى الاعارة وتتحسن حالتى المادية فأمتلك سيارة ويكون لى رصيد

فى البنك ثم أترك مهنة التدريس وأفتـــح مكتبا للتصـدير والاستيراد فأصبح واحدا من رجال الأعمال المشهورين • بلعت ريقى بمرارة الحنظل ، تنهدت فى أسى ، ملأنى شعور بالحسرة وقلت فى نفسى : « يالها من أحلام ، لا يعرف الانسان قيمة ما هو فيه من نعمة الا اذا حرم منها •• أنا لا أريد الا أن أعيش •• فى صحراء ، فى جبل ، فى واحة •• المهم أن أتنفس الحياة حتى لو كانت فى كهف ، اغلى وأروع مافى الحياة هو أن نشـعر أننـا أحرار ، واذا كان مقدرا لى أن أصبح غنيا فلماذا لم أولد اصـلا فى عائلة ثرية ، صدقت ياعم ادريس •• فعلا •• أحسن شىء ان البنى آدم يرضى بقسمته ويعرف أن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين •• الله يمسيك بالخير ياعم ادريس » •

حينئذ تذكرت الطاقية البيضاء التى قذفها لى من الشـباك ، أخرجتها من جيبى ولبستها •

ـ كمال ، أما زالت أسيوط بعيدة • ؟

ـ لا أعرف بالضبط ، لكن القطار سيصل بنا عند الفجـر ، مالك نادية •؟

ـ المغص يمزق بطنى •

ـ لابد أنك جائعة ، أين « السندوتشات » التى عملتهـا سعاد • ؟

ـ فى الحقيبة الصغيرة ، أنا •• لن آكل •

ـ يجب أن تأكلى لكى يضيع المغص ، إنه من الجوع •

ـ لا ، ليس لى نفس •

ـ سأطلب شايا ساخنا من عامل البوفيه .

ـ ٥٠ ـ

لأول مرة في حياتي ابتعدت عن العمران والناس ، اللون الأصفر يحاصرنا من كل الجهات ، الصحراء ممتدة الى الأفق برمالها الكالحة وتلالها القصيرة ، الطريق الأسفلت شريط ضيق متعرج ، يعلو ويهبط كأنه ثعبان اسود عملاق يتلوى لكي يهضم فريسته . السيارة تئن بمحركها المتهالك وترتجف كلما انحدر الطريق تحتها . أحيانا كانت تظهر على الجانبين شجيرات خضراء قاتمة أو بقع من الأعشاب الشوكية حمراء اللون ، حاولت أن أفهم شيئا من أحاديث بقية الركاب دون جدوى ، كانت لهجتهم غريبة ، لم أميز منهم الا كلمات متفرقة : « الزيتون ، الله ، البئر ، الغلمان ، الأردب ، الطيور » .

سألت نفسي بشيء من الحيرة : « كيف يمكن أن نعيش بين هؤلاء القوم .؟ وماذا سأقول عن نفسي .؟ ومن أي عمل أكتسب لقمة العيش . ؟ هل أسألهم عن العرجاوي » انتظرت حتى انتهى كبيرهم من حديثه ، التفت اليه وسألته : قل لي ياشيخ العرب . هل تعرف العرجاوي ؟ .

فوجئت به يكلمني بالعربية الفصحى : كيف لا أعرفه وهو الذي يشتري مني الأغنام والماعز ؟ . لماذا لم ينتظركم بسيارته ؟

ـ لا يعرف أننا قادمون .

ـ أقرباؤه ؟ .

ـ نعم •
ـ العرجاوى رجل تقى ، السلام أمانة •
ـ يصل ان شاء الله •
أثلج صدرى ما سمعته من الشيخ فأحسست بالأمان وشردت بخيالى أتصور العرجاوى كرجل ميسور مهيب وقلت فى نفسى : « لابد أنه سيساعدنا وقد يستعين بى فى تجارته ويجعلنى أمسك حساباته ، اذن لاداعى للقلق » •
وبينما كنت أتأمل الطريق بنظرة تفاؤل تاركا لخواطرى العنان ، توقفت السيارة وقال السائق :
ـ واحة السعدى ياسيدنا الشيخ •
ـ أتكلمنى ؟•
ـ نعم ، ألن تنزل هنا ؟•
ـ قلت لك واحة أولاد سعيد •
ـ لا توجد واحة بهذا الاسم ، انها واحة السعدى •
التفت الى شيخ العرب فهز رأسه مردداً : نعم ، نعم •
ـ لكنى لا أرى شيئا •• أين الواحة ؟•
ـ كان يجب أن ينتظروك هنا ياسيدنا الشيخ •
قالها السائق وفتح الباب ثم أشار الى الجانب الأيمن واستطرد: « هذا المدق سيوصلكم الى الواحة لا تحيدوا عنه » •
كانت الشمس حارقة والريح لافحة تلسع وجوهنا بذرات الرمال الساخنة جدا ، حملنا الحقائب أنا ونادية ، أما دعبس فقد حمل ايناس ومشينا على المدق نصعد التلال ونهبط المنحدرات ، العواصف

الرملية تطيش وتهدأ ، الأفكار تتزاحم فى رأسى ، تذكرت قول السائق : « ياسيدنا » •

لمعت الكلمة فى ذهنى واستمرقتها فسألت نفسى : « لمـــاذا لا أكون واعظا » •••

•• فى البداية على الأقل يجب أن يكون لى عمل يعرفنى الناس من خلاله ، فأنا محتاج الى صفة أقدم نفسى بها الى الناس ، ثم تأتى بعد ذلك التجارة أو الزراعة ، المهم أننى ••

ـــ كمال •• الى متى سنظل سائرين هكذا •؟

ـــ هل تعبت يانادية •؟

ـــ أخشى أن يحل علينا الظلام •

ـــ قطعنا مسافة كبيرة ولابد أن الواحة أصبحت قريبة لـــكن المرتفعات تحجبها •

ـــ وماذا سنقول عن أنفسنا •؟

ـــ أنا واعظ وأرسلتنى اليكم وزارة الأوقاف •

ـــ وافرض أن الواحة ليس بها مسجدا •؟

ـــ مستحيل ، على الأقل يكون بها زاوية أو حتى مصـــلية « بالطوف » •

ـــ كمال ، المدق الذى كنا نمشى عليه اختفى •!

ـــ الرمال تغطيه •

ـــ أخشى أن نتوه فى الصحراء •

ـــ لا يانادية ، لا تخافى •• ان الله لم يتخل عنـــا فى أحـــلك الأوقات ولن يتخلى عنا أبدا •

ــ المدق اختفى يأكمال ..!

ــ اتبعوني وسوف يهديني الله اليه .

ــ تعبت ولن أقدر على السير بعد الآن .

ــ فعلا يجب أن نستريح ونأكل شيئا ، افرشى البطانية تحت هذه الشجرة اليتيمة ، تعال يادعبس . أخرجت « الزمزميــــة » وصببت لهما الماء فى الكوب «البلاستيك» حرصاعلى ألاتنسكب. فتحت علبة مربى ثم أفرغتها فى طبق صغير وبدأنا فى تناول الطعام تبخر العرق فأحسست بشىء من البرودة تلطف جسمى ، مــرت لحظات والشمس تميل ببطء نحو مخدعها الغربى ، خيم الصمت على المكان ، دعبس أغمض عينيه واستسلم للنوم . زوجتى ترضع ايناس وأنا أتأمل هذا الفضاء الشاسع المريع وأفكر فيما ســيفعله أخى عندما يذهب الى ابن خالتى فى « آم المصريين » ويكتشف أننى لم أذهب اليه ، هل سيحاول البحث عنى ؟ آم ســيكفى على الخبر « ماجورا » ويصمت .

فجأة ، صرخت نادية وأمسكتنى بشىء من الهلع ، اضــطرب قلبى ، جف حلقى ، سألتها :

ــ مالك يانادية .؟ ايناس جرى لها حاجة .؟

ــ ثعبان ، ثعبان .

رأيت جزءه الممتد خارج الشق ، يقف ساكنا ، يلمع بلون الرمال تناولت حجرا وألقيته بكل قوتى ، فتهشم رأسه وجعل يتــلوى مترنحا ، وهنا فقط رأيت أرجلها الصغيرة فشعرت بالندم وقلت في أسى :

ـ سامحني يارب ، كانت سحلية يانادية .

حملنا الحقائب ومشينا ، تملكني احساس بالذنب ، أصبحت قاتلا لأول مرة في حياتي ، تذكرت أيام الطفولة كنت أسمعهم يقولون : السحلية تحمل مفتاح الجنة وقتلها حرام .

تنهدت بنوع من الضيق ورددت في نفسي : « يبدو أن عجلة الاجرام تصحبني اليها ببطء ، اليوم قتلت سحلية أزهقت روحا ، ولا أدري ماذا ..؟ آه لو أنها تريثت او تأملتها لتعرف أنها سحلية في البداية كانت حواء وراء خطيئة آدم واليوم .. اليوم ، لا .. يبدو أنها لعنة موروثة ، لعنة نسبية ، يزيد حجمها أو ينقص من انسان لآخر ، لكنها تصيب الجميع .. هل قدر للانسان أنه في الوقت الذي يهب فيه للدفاع عن نفسه يرتكب جريمة ؟ وماذا لو كانت هـذه السحلية ثعبانا حقيقيا ؟ أكانت تسكت وتتركه ليهجم علينا وينهي حياتنا .. أكان يجب أن تتكاسل حتى يخنقني مجدي بقبضته القوية ثم يقتلها أو يقيدها ويهرب كما جاء هاربا من عادة الثأر في الصعيد .؟ .. وهل كان ..

ـ تهنا يا كمال ، المدق ليس له أي أثر .

ـ هه ، اطمئني يانادية ، لن نتوه ولن يصيبنا الا ماكتب الله لنا .

ـ الشمس توشك أن تغرب .

بين التلال الجيرية والرملية ، رأيت كتلة هائلة من الصخر يصل ارتفاعها الى أكثر من خمسة أمتار ، توجهت اليها وصعدت الى قمتها ثم وقفت أمسح بعيني صفحة الرمال من كل الجهات ، على

مرمى البصر لمحت شكلا قاتما يشبه قمم الأشجار ، تنفست الصعداء ، وجريت بالفرحة اليها فقلت مبشرا :

ـ رأيتها يانادية ، الواحة أقرب مما تظنين ، لو أسرعنا الخطا سنصل قبل الظلام .

ـ الحمد لله .

ـ ألم أقل لك أن الله لن يتخلى عنا .؟ هيا بنا .

ـ عرفت علامات الطريق اليها لكى لاتتوه .؟

ـ نعم ، انها بالضبط فى اتجاه الشرق من هنا وربما لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات .

تولدت فى نفوسنا شحنة هائلة من الحماس ، أدرنا ظهورنا لقرص الشمس الوردى الشفاف ، ومشينا نجوب السهول ، نصعد التلال ، ننزل المنحدرات ، نلتفت الى قرص الشمس ، نتعثر فى الأحجار ، بدأت تظهر قمم الشجر ، تعلقت أبصارنا بها حتى وقفنا على الهضبة المطلة عليها وصاحت نادية بشىء من الاحباط :

ـ أهذه واحة . ؟

ـ تعالى ، لمحت رجلا هناك ، تعالى نسأله .

كانت الأشجار باسقة الأفرع شديدة الخضرة ، لايتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة على مسافة أمتار قليلة حجرة بلا سقف ، من بعيد يمتد سور قصير وصف من شتلات أشجار الكافور الميتة ، الرجل يهرش كحيوان أجرب ، جلبابه قصير قذر كأنه من حفارى القبور ، شعرت أننا دخلنا أرضا تخصه فقلت مناديا : السلام

عليكم . التفت مأخوذا ، فغر فاه ، وضع يده فوق حاجبيه وجعل يحلق فينا ثم انحنى يتناول عكازه من الأرض وجر ساقيه قـادما الينا ، كان من الواضح أنه يعانى آلاما فى قدمه اليسرى المربوطة بشريط من الجلباب بادرت فسألته : أهذه واحة السعدى ..؟

أجاب فى عصبية وبصوت أجش : ألم تر واحة من قبل ..؟

ـ أقصد أن تدلنى على طريقها .

ـ لا أعرفه .

ـ قل لى من فضلك ، أين نحن الآن ..؟

ـ قلت لك لا أعرف .. هيا ، مع السلامة .

ـ ياسيدى ، نحن كما ترى ..

ـ ألم تسمع ، هيا .

قالها صارخا بصوته القبيح فبكت ايناس ورفعت زوجتى وجهها الى السماء : ارحمنا يارب ، ماذا نفعل الآن ..؟

ـ اصبرى ياناديه ، اسمح لنا ياشيخ العرب أن نقضى ليلتنـا عندك .

ـ هذه الحرمة زوجتك ..؟

ـ نعم ياسيدى .

ـ والحقائب .. ماذا بداخلها ..؟

ـ ملابسنا وبعض الأطعمة .

ـ أطعمة كثيرة ..؟

ـ نعم .

ـ ستبيتون هنا اكراما للصغيرة فقط .

ـ الله يكرمك .

ـ تعالوا .

سرنا خلفه بشيء من التوجس ، في الحجرة نار تضطرم تحت علبة من الصفيح بها ماء يغلي ، وضعنا الحقائب وجلسنا ، بدأت زوجتي ترضع ايناس ، لاحظت أنه يتأمل ثديها بعين زائغة ، غلى الدم في عروقي ، أومأت لها فاستدارت الى الجانب الآخر ، اقتربت منه وسألته : ألا تعرف العرجاوي ..؟

ـ لا أعرف أحدا .

ـ منذ متى وأنت هنا ..؟

ـ وأنت مالك .

ـ هل تنوي زراعة هذه الأرض ؟.

ـ ان كنت تظن أنني مجنون فأنا أعقل منك ومن أهلك .

ـ حاشا لله ، أنا أعتقد أنها فعلا تصلح للزراعة وبدليل هذه الأشجار .

ـ أنت لم تذق ماء البئر ، خذ .. اشرب .

قدم لي وعاء من الفخار ، شربت منه جرعة ماء ، فكان طعمه مائعا يشبه ماء العيون الكبريتية في حلوان .

ناولته الوعاء مؤكدا : انه ماء مفيد للصحة .

ـ في قاع البئر أحجار من الملح .

ـ وأنت ماذا تفعل هنا ..؟

ـ أحارب الثعالب .

ـ ذات الفراء ..؟

ـ لا أفهمك .
ـ اذن فأنت تبيعها لحديقة الحيوان .
ـ أبيع ماذا .؟
ـ الثعالب .
ـ بيني وبينهم كراهية شديدة .
ـ لماذا . ؟
ـ يريدون قتلي .. انظر .
كشف عن ساقيه فرأيت بهما جروحا صديدية عميقة ، كان يعالجها برماد الخشب المحترق ، يفركه بين أصابعه ويرشه فوقها متألما ، غطى ساقيه وقال بغيظ : لكنى سأنتقم ، سأنتقم .. ولع .
ـ نعم . ؟
ـ خرمان ، ولع .
ـ أنا لا أدخن .
غمغم بكلمات هامسة وقام الى النار ، رفع العلبة ووضعها على الأرض ، فرش أوراق الشجر وأمسك قطعتين من العصى ، ثم أخرج من العلبة شيئا كالأرنب المسلوخ وبلا رأس . وضعه على الأوراق الخضراء قائلا :
ـ تفضلوا ، شاركونى الطعام .
ـ معنا طعامنا .
ـ ستأكلون معى لكى آكل معكم .
قالها وفسخ الأرنب الى أربع قطع ، أخذ كل منا واحدة ، فتحت الحقيبة الصغيرة وأخرجت منها الأرغفة ومثلثات الجبن وبدأنا

تناول الطعام على ضـــوء « ركبة » النار التى دأب على تغذيتهـا بالشتلات الجافة بين وقت وآخر ، شربنا ماكان متبقيـــا فى « الزمزمية » من الماء العذب ، ساعدنى دعبس وملأتها من البئر ، وعندما رجعت الى الحجرة ، شاهدت الرجل يقترب من زوجتى وسمعتها تصرخ فيه : لا ، لا .

تملكنى الغيظ وأحسست بأننى أريد أن أقتله ، اندفعت اليه وسحبته من جلبابه فى عنف : ماذا تريد منها ؟

ـ أسألها ان كانت تعرف الرقص .

ـ ابتعد عنها لكى تفوت ليلتك السوداءعلى خير .

ـ لو لم تكن ساقاى مجروحتين لفرجتكم على الرقص ،الرقص الذى عمركم ما رأيتم مثله ، أنا كنت راقصا من الدرجة الأولى ، جميع الكازينوهات تعرفنى لكن الثعالب غدرت بى ، غنوا ، غنوا معى :

« الثعلب فات فات وفى ذيله سبع لفات » .

وجعل يغنى ويهذى كالمحموم ، أحسست أن وراءء مأســاه ، لكننى فى نفس الوقت كنت أشعر نحوه بكراهية شـــديدة . مـــر الوقت بطيئا وهو يرفع عقيرته بكلمات غريبة حتى غلبه النعـــاس فنام وهو يشخر بصوت مزعج مثل نقيق الضفادع ، حينئذ كـــان القمر يفرش بساطه المضىء على كل شىء ، رفعت وجهى للســـماء وتأملت قرصه الفضى الذى طالما تغنى به الشعراء فوصــــــفوه بالوجه الملائكى تذكرت صعود العلماء اليه وهبـــوط مركبة « أبوللو » على جبال « الألبين » والصور التى التقطوها لســطحه

المليء بفوهات البراكين كأنه وجه انسان مريض بالجدرى ، سألت نفسى : « لماذا تكون الأشياء البعيدة جميلة واذا امتلكناها ندوسها بالأقدام ونصفها بالقبح ، بالأمس القريب كنا ننعم بحياة آمنة رغدة ومع ذلك لم نشكر الله عليها ، والآن نتمنى الحرية والأمان حتى لو كان غذاؤنا خبز وملح .. ما أتعس الانسان ! » ..

ظللت شاردا مع خواطرى حتى نادتنى زوجتى بصوتها الحنون :

ـ كمال .

ـ نعم يانادية .

ـ ألست نادما ؟.

ـ أنا .! على ماذا ؟.

ـ لم تعد مدرسا .

ـ لكن الحياة مستمرة ويجب أن نعيش مهما كانت الصفة التى نحملها ..

ـ مستقبلك ليس هنا .

ـ المستقبل بيد الله ، أما أنا فيكفينى حبك أنت واايناس .

ـ يحق لك أن تكرهنى .

ـ نادية حرام عليك ، هذا هو قدرنا معا والانسان مشدود الى قدره بقوة جبارة لا يمكن تعطيلها ، اسمعى ، أنا كنت أحلم بأن أكون صحفيا ، لكن مجموعى وقف بى عند كلية الآداب ولم أكن راغبا العمل فى الريف ، لكن تقدير « مقبول » فى الليسانس أوصلنى الى كفر الغنيمى وأيضا كنت أخطط للزواج من خريجة

جامعة ، لكنى أحببتك وتزوجتك •• اذن لابد وأن يكون هـذا هو قدرى المكتوب سواء رضيت به أم لم أرض •

— ٥١ —

مع نسمات الصباح الأولى تأهبنا للمسير ، لكنه وقف يسد علينا الطريق فقلت له :

ــ نحن نشكرك على استضافتك لنا ليلة البارحة وندعو لك بالشفاء •

ــ هذا لا يكفى •

ــ ماذا تريد •؟

ــ شيئا أرتديه •

ــ حاضر •

ــ وشيئا آكله •

أعطيته جلبابا ورغيفا وعلبة مربى ، كان ينظر فى الحقائب بعين ملؤها الجشع ، اقترب منى وقال :

ــ لا تنس اننى أطعمتكم ثلاثة أرباع الفأر •

ــ الفأر •١٠ ماذا تقول •؟ ألم يكن ارنبا الذى أكلناه •؟

ــ لم أقل أنه أرنب •

ــ أكلنا فأرا •؟ ياخرابى •!

هكذا صرخت نادية وارتمت على الأرض تحاول أن تتقيأ بلا جدوى ، نظر الينا بمزيج من الدهشة والازدراء •

ثم قال باستعلاء :

ـ ماذا دهاكم ..؟ لا فرق بين أرنب جبلي وفأر جبلي ، ألم يكن شهيا ..؟ الناس في كوريا وتايلاند والهند يأكلون الفئران والثعابين في زائير يأكلون القرود ، في فرنسا يتهافتون على الضفادع ، ماذا ..

ـ ابتعد ، ابتعد أيها الخنزير اللئيم .

دفعته بكل قوتي فتراجع واستند الى الحائط ، أخذنا الحقائب وخرجنا فشيعنا بصوت مرتفع :

ـ لا أدري أي نوع من البشر هذا ..!

ـ ماذا يغصبه على العيش هنا ..؟

ـ لابد أن وراءه سرا ، يبدو أنه كان ثريا قبل ذلك فهو يعرف الكازينوهات ويتحدث عن كوريا والهند وفرنسا .

ـ فهمت أنه كان يعمل راقصا في فرقة تجوب أنحاء العالم ، فكيف جاء الى هنا ..؟

ـ لا أعرف لماذا وكيف جاء ؟ انه انسان غامض .

ـ من شاف بلاوى الناس هان عليه بلاؤه ..!

تألقت الشمس في كبد السماء ، قيظها الحارق يكوى أجسامنا ، أخذ منا التعب كل مأخذ ، تملكنى شعور باليأس ، كنا كمن يبحث عن ابرة في كومة قش ، أحسست أننا سنموت لا محالة على هذه الرمال الممتدة بلا نهاية ، جف حلقى وضاقت أنفاسى كأن حبلا قويا يلتف حول عنقى ويضغط عليه ، ارتمينا على الأرض نلتقط الأنفاس ، نشرب جرعة ماء ، نستجمع قوانا ، التقت نظراتنا في صمت ، ماتبقى لنا من كلام على هذه الأرض أصبح مرسوما

في وجوهنا بخطوط سوداء حفرها الارهاق والخوف .

تناهى الى سمعى صوت رائع طربت له أذناى ، التفت اليها غير مصدق ، وجدتها ترهف السمع وقد انفرجت أساريرها :

ـ نادية ، أتسمعين . ؟

ـ انه صوت سيارة .

جريت قفزا الى التل فصعدت أعلى جزء فيه وتلفت ، وقع بصرى عليه ، كان جرارا زراعيا أحمر اللون . يجرى ناشرا خلفه سحابة من الغبار الأصفر الداكن . لوحت بذراعى وناديت بأعلى صوتى :

ـ أنقذنا ، نحن هنا ، أنقذنا من الموت .

مرت لحظات كئيبة قاسية ، صوتى يضيع مع الرياح وأنا أنادى بعزم وتصميم طالبا النجدة ، أخيرا تنبه السائق ولمحنى فاستدار نحو التل ، كان شابا دون الخامسة والعشرين ، يرتدى قميصا أحمر وبنطلونا كاكيا ويضع على رأسه طاقية بيضاء مزركشة ، سألته متوسلا :

ـ ألا يمكن أن تأخذنا معك الى واحة السعدى .؟

ـ أنا متجه الى مزرعة « أبو المجد » .

ـ ستكون مروءة منك اذا ساعدتنا .

ـ أن ورائى فى المزرعة أعمالا كثيرة .

ـ أيرضيك أن نموت هنا .

ـ تعالوا معى نستأذن صاحب المزرعة أولا .

وضعنا الحقائب فى المقطورة وركبنا ، تنفست الصعداء ، رفعت

زوجتى وجهها الى السماء وقالت بصوت مسموع : ياما أنت كريم يارب •

— ٥٢ —

لاحت من بعيد المساحة الخضراء محاطة بأشجار الكازورينا ، ويتصدرها لوحة زيتية كبيرة ، الأرض لا تختلف الا فى كونها مسطحة تماما ، هلت علينا نسمات رطبة ، اقتربنا من المدخل وهو شارع يفصل المزرعة الى جزءين ، قرأت اللوحة : « مزرعة أبوالمجد لصاحبها : المهندس حسن عبد العظيم أبو المجد • تأسست فى ابريل سنة ١٩٧٥ » •

اللون الأخضر يكسو الرمال بدرجات مختلفة ، قابلتنا روائح عطرية منعشة ، دفعنى حب الاستطلاع أن أسأل الشاب عن نوع ذلك النبات القصير ذى الأوراق الخيطية الدقيقة فأجاب فى شىء من الفخر •

ـ أعشاب طبية تباع بالعملة الصعبة •

كانت مساحتها لاتقل عن عشرة أفدنة ، بعدها مباشرة وعلى الجانب الأيسر نبات يشبه « السمار » الذى ينمو على شواطىء الترع والمساقى ، فهمت أنه يستعمل كغذاء للماشية عندما وقع بصرى على مبنى مستطيل يشبه الحظيرة ، أمامه بالات من التبن • أما الجانب الأيمن فمزروع بالفول السودانى الذى اصفرت أوراقه علامة على النضج ، خلف أشجار الزينة شد انتباهى منزل ذو طابقين مطلى باللون الأبيض وله شبابيك زرقاء ، توقف الجرار

وقفز الشاب من مقعده قائلا : دقيقة واحدة استأذن الباشمهندس •
كنا مبهورين بهذا الانجاز الرائع فى قلب الصحراء ، سألتنى زوجتى :
ــ كيف يحصلون على المياه الكافية لرى هذه الخضرة •؟
ــ من الآبار طبعا •
ــ لازم يكون مليونيرا •
ــ من ••؟ صاحب المزرعة •؟ طبعا مليونير ، لكن يجوز انه بدأ بمبلغ متواضع ، فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة •
ــ انه قادم •

رجع الشاب ومعه رجل فى الأربعين ، طويل ، نحيف ، قمحى اللون ، يرتدى بنطلونا أسود وقميص كاروهات أخضر ، يضع على عينيه نظارة طبية ذات اطار ذهبي وجهه مشرق بابتسامة عريضة جعلتنى أشعر بالألفة • رفع يده بالتحية فنزلت وصافحته ، قدم نفسه بتواضع شديد : حسن أبو المجد فى خدمتكم •

ــ شكرا ، نحن فى الحقيقة كنا ذاهبين الى واحة السعدى وتهنا لمدة يوم ونصف حتى أنقذنا الأخ سائق الجرار من الموت فى الصحراء •
ــ أول مرة تسافرون الى واحة السعدى •؟
ــ نعم ، فأنا واعظ جئت موفدا من وزارة الأوقاف •
ــ أهلا ، أهلا ، حصلت لنا البركة •
ــ الله يبارك فيك •
ــ طيب ، الواحة بعيدة والطريق وعرة ، فايه رأيك لو تشرفوننا

اليوم وغدا باذن الله يوصلكم الأسطى ناهض الى الواحة •
ـ الحقيقة ، هذا كرم من حضرتك وأنا عاجز عن الشكر •
ـ لا ، أبدا •• تفضلوا •
ـ جزاك الله كل خير •

سرنا معه بينما قفز سائق الجرار الى عجلة القيادة واستدار مبتعدا ، فى نفس اللحظة انطلق صوت ماكينة المياه : « طق ، طق ، طق » • انعطفنا يمينا من المشاية المؤدية الى البيت ، على الجانبين أحواض الزهور منسقة تنسيقا بديعا ، فى المدخل تكعيبة عنب هائلة تتدلى منها العناقيد : صفراء وقرمزية وسوداء ، تتناثر تحتها مقاعد رشيقة من الخيزران ، أشار اليها قائلا :
ـ تفضلوا سأغيب عنكم خمس دقائق •

كان البيت فخما كأنه قصر ، الجدران مرتفعة نظيفة ، النوافذ عريضة ، الأبواب عالية مزخرفة ، وضعنا الحقائب وجلسنا ، المنظر من حولنا ساحر يفيض روعة وجمالا ، الهواء عليل معطر كأنه نسيم الجنة ، تنفست بعمق ، مسحت المكان بناظرى ، خيم الصمت برهة ثم قالت زوجتى بنبرة حالمة :
ـ عندما يرجع أخى من السعودية سيكون معه أموالا كثيرة •
ـ يعنى ايه • ؟
ـ نستطيع أن نأخذ منه مبلغا :
ـ بصفة ايه •؟
ـ أما سلفة أو ثمنا لنصيبى فى الدار والغيط •
ـ لماذا •؟

ــ نأخذ قطعة أرض كهذه ونزرعها •
ــ آه ، يبدو أنك حلمت كثيرا وحلقت فى سماء الخيال فنسيت أننا خرجنا من « الكفر » ولن نرجع اليه أبدا •

تجهم وجهها وانعكس فى ملامحها شعور بخيبة الأمل ، فقلت مهونا عليها :

ــ اذا كان العرجاوى غنيا كما سمعت فهو الذى سيساعدنا •
ــ انظر ، انظر ، اللهم صل على النبى •

حينئذ كان باب الحظيرة قد فتح وخرج قطيع من أبقار « الفريزيان » تتسابق الى مراعيها الخضراء ، تجرى فى نشاط زائد وجلدها الأبيض الملطخ ببقع سوداء يلمع تحت وهج شمس الأصيل •

ــ تأخرت عليكم •؟

قالها المهندس أبو المجد وسحب كرسيا ، فجلس جانبى مرددا :

ــ أهلا ، أهلا •
ــ أهلا بك ياحسن بيه •
ــ هل ستقيمون فى الواحة بصفة مستمرة أم أنها مجرد زيارة•؟
ــ اقامة مستمرة اذا شاء الرحمن •
ــ هذا اتجاه مبشر ودليل على أن شبابنا أصبحوا عمليين أكثر وتخلصوا من قيود العصبية والحنين الى الماضى •
ــ فعلا ، أفكار الشباب تغيرت •
ــ تصور أنهم وصفونى بالجنون منذ خمسة أعوام •
ــ لماذا •؟

ـ لأن عندى روح المغامرة ، فعندما رجعت من « ليبيا » حيث كنت معارا قررت أن أضع كل ثروتى فى هذا المكان ..

ـ السلام عليكم .

قالتها سيدة شقراء ، فى نحو الثلاثين من عمرها ، ترتدى فوق الفستان الفيروزى بالطو أبيض ، أشار اليها قائلا : زوجتى دكتورة سوسن ، طبيبة بيطرية سابقا ، ومديرة الانتاج الحيوانى بالمزرعة حاليا .

ـ أهلا وسهلا .

ـ الأستاذ واعظ أرسلته وزارة الأوقاف .

ـ الينا . ؟

ـ الى واحة السعدى ، لكنه على أى حال سيكون قريبا منا .

صافحتنا ثم خلعت البالطو وجلست بينما استطرد زوجها :

ـ تصورى ياسوسن .. الجماعة تاهوا فى الصحراء وظلوا سائرين يوما ونصف .

ـ ياخبر ...! وهل كان معكم طعام وماء .؟

ـ نعم ، كان معنا مايكفى ويفيض ، ومع ذلك لم نسلم من قسوة الصحراء .

ـ كيف . ؟

ـ أكلنا فأرا .

ـ أكلتم فأرا ! .. كيف .؟

ـ رزقنا الله برجل يعيش فى حجرة بلا سقف ، رجل قبيح مثل حيوان أجرب ومصاب فى قدميه بجروح غائرة ، قدم لنا طعاما

حسبناه أرنبا •
ـ وكان فأرا •• ياخبر !•• لقد عانيتم كثيرا •
ـ على أى حال ، اعتبروا أنكم وصلتم الواحة وانتهت المعاناة•
ـ الحمد لله •
ـ لابد أنكم جائعون ، سأجهز لكم طعاما •
قامت متجهة الى البيت وكرر المهندس حسن تحيته : حصلت لنا البركة •
ـ الله يبارك فيك ، الحقيقة ياحسن بيه حضرتك نموذج مشرف لكل مصرى •
ـ مافعلته أنا يستطيع أى شاب عنده روح المغامرة أن يعمل أحسن منه •
ـ مثل هذا الانجاز الرائع يحتاج فعلا الى روح المغامرة •
ـ تعرف لماذا لا يوجد الآن رحالة مثل ابن بطوطة أو مكتشف، مثل ابن الهيثم ، ولماذا تخلفنا عن ركب التقدم وانقطعت عنا أمجاد الحضارة العربية •• لماذا •؟ لسبب بسيط جدا هو انعدام روح المغامرة •
ـ معك الحق فى هذا •
ـ لذلك أنا سعيد جدا أن يكون رجال الدين فى طليعة معمرى الصحراء •
حينئذ سمعنا صوت كلاكس سيارة فقام واتجه ناحية مصدر الصوت ، غاب عنا بضع دقائق ثم عاد ومعه ضابط •
دقت زوجتى على صدرها وقالت بفزع : ياخرابى ، ياخرابى •

ألجمتني المفاجأة ، وقفت حائرا ، اريد ان اجرى أو تنشق الأرض وتبتلعني ، خفق قلبي بعنف وكاد ينخلع من مكانه ، قلت في نفسي :

ــ « خلاص ، جاءك الموت ياتارك الصلاة .. هذه هي نهايتنا المحتومة » .

مرت لحظات صعبة ، مريرة ، حتى قال المهندس حسن وهو يشير بيده اليمنى :

ــ حضرة الضابط يبحث عن رجل أسود ، شعره ناعم ومصاب في قدميه .

ــ مصاب في قدميه .؟

ــ أليس هو الذى أطعمكم الفأر .؟

ــ انه مجرم خطير ، كان يعمل راقصا ثم كون عصابة لسرقة البنوك .

ولم يكد ينتهي الضابط من كلامه حتى قالت نادية .

ــ نعم انه هو ، قال انه راقص من الدرجة الأولى .

ــ تعال معنا لكي تدلنا على مكانه .

ــ ٥٣ ــ

توقفت السيارة على مسافة بعيدة ، كان واقفا في نفس المكان الذى رأيته فيه أول مرة ، يبدو أنه كان يجمع حطبا ، أشرت لهم اليه ، وزعوا أنفسهم ومشوا حاملين السلاح ثم حاصروه من كل الجهات وطالبوه بالتسليم ، وقف حائرا يتلفت في ذهول ، رفع

بديه ، سار اليهم ، قبضوا عليه ، ألبسوه أسورتين من الحديد واقتادوه الى السيارة ، كاد الشرر يتطاير من عينيه عندما وقع بصره على ، كشر عن أنيابه ، حرك شدقيه مستجمعا لعابه ، حاول أن يبصق على فابتعدت وسقطت على سترة العسكرى الجالس الى جوارى فضربه « بدبشك » البندقية ، لم أحتمل نظرته الشيطانية وهو يحدق فى كأفعى تتربص لفريستها تنبهت الى أن السيارة تجرى على طريق من الأسفلت ، أصابنى القلق وقلت :

ــ رجعونى أولا الى المزرعة •

ــ هناك بعض الاجراءات ، ستأخذ مكافأة من الانتربول « البوليس الدولى » •

قالها أحد العساكر فعلق الرجل بمزيج من السخرية والغيظ :

ــ بكم ألفا بعتنى ؟•

أحسست بوخز الضمير وترددت كلمته الأخيرة فى ذهنى برجع صدى كئيب :

ــ « بعتنى ، بعتنى ، بعتنى •• الأنتربول ، كم ألفا ؟• اذن فهو لص ومحترف ، لابد أنه سرق مبلغا كبيرا ، مليون جنيه مثلا ، لكنه بائس يرتجف كحيوان أجرب ، بماذا تفيده ، ملايين الدنيا كلها •• ياله من غبى ! » •

ابتسم جندى وقال فى تودد : أنت أمك داعية لك •

ــ الى أين أنتم ذاهبون الآن ؟

ــ الى مديرية أمن أسيوط •

ــ أسيوط ! لا ، أرجوكم نزلونى •

ــ لقد وصلنا ٠

تملكنى الفزع وأحسست « بالمغص » ينشب أظافره فى أمعائى قلت لنفسى : « لابد أن صورتى عندهم وسوف يتعرفون على ، ماذا لو رآنى الضابط سمير ؟ ٠ انه يعمل هنا فى أسـيوط ولابد أن الجرائد نشرت قصتنا وقرأها » ٠

وبينما كنت شاردا مع أفكارى توقفت السيارة ونزلنا أمام مبنى المديرية ، فكرت فى محاولة الهرب ، لكنى لاحظت أن رجال الأمن منتشرون فى المكان كله ، سرت معهم بلا ارادة ، كـانت قدماى لا تقويان على حملى وذهنى شارد مع النهـاية التى لابد منهـا ، تمنيت لو لم أر هذا اللص أو أرشد عنه ، رددت فى آسى :

« أصبحت كمن حفر حفرة لغيره فوقع هو فيها ، صـحيح لا يحيق المكر السيىء الا بأهله ، لكنى لم أنكر والظروف هى التى جمعتنا به ، مالى أفكر بتشائم ، أليس هذا هو قدرى ثم اننى لو هربت سأثير ضجة وقد أفشل ويعرفون حقيقتى ، أمـا الآن فالجميع يبتسمون لى ويشكروننى » ٠

أخذونى الى ضابط كبير برتبة « عقيد » قام وشد على يدى ثم هنأنى :

ــ ألف مبروك ، الأنتربول سيقدم مكافأة لن تقل عن ألف وخمسمائة جنيه ٠

ــ على ماذا ٠؟ لم أفعل شيئا ٠

ــ أنت قدمت للمجتمع الدولى خدمة كبيرة ٠

ثم رفع سماعة التليفون وسألنى :

ـ اسمك ايه ؟.

ـ هه ، اسمى ، اسمى كمال الدين .. الشيخ كمال الدين توفيق .

تحدث فى التليفون بلهجة آمرة :

ـ بالنسبة لموضوع الانتربول ، ابعثوا اشارة باسم السيد كمال الدين توفيق ، أيوة المرشد .. نعم ؟.

قال الكلمة الأخيرة باستغراب والتفت يسألنى :

ـ أنت من روض الفرج ؟.

حينئذ خفق قلبى بعنف وكاد يتوقف عن النبض ، هربت الدماء من أطرافى ، جف حلقى ، أحسست باجهاد شديد ، ابتعدت صور الأشياء من حولى ، أصبحت ضبابية اللون ولم أدر بعد ذلك بما حدث . حتى أفقت على صوت الضابط سمير ، كان واقفا بجانبى وأنا نائم على كنبة « فوتيه » فى مكتب العقيد .

ابتسم سمير وقال : أهلا ياكمال ، اطمئن ، أنت برىء ومجدى حى يرزق .

ـ ماذا تقول ؟. مجدى على قيد الحياة ؟!.

ـ نعم كان مغمى عليه وأنتم تسرعتوا وكنتم مخدوعين .

ـ زوجتى فى مزرعة « أبو المجد » .

ـ أرسلنا من يحضرها .

ـ صحيح ، مجدى مايزال حيا ؟.

وستراه بنفسك .

ـ لا ، لاداعى .

ـــ حماتك داخت في البحث عنكم ٠

ـــ لن نرجع الى كفر الغنيمى ٠

ـــ اطلب نقلك الى القاهرة ٠

ـــ لا ، سأنشيء مزرعة ٠

ـــ مزرعة ٠؟

ـــ ألم تقولوا ان لى مكافأة من « الانتربول » ٠؟

ـــ نعم ، لكن الوظيفة ٠؟

ـــ غدا أقدم استقالتى ٠

ـــ أهذا قرارك النهائى ٠؟

ـــ نعم ، والطيور التى خرجت من عشها خائفة ، مذعورة لن تعود ثانية ، لن تعود لأن الحياة أصبحت غابة والناس فيها وحوش يفترس القوى الضعيف ٠

ـــ لكنك ستواجه مشاكل كثيرة ، البداية ستكون صعبة ٠

ـــ طالما أن لى هنا فى رأسى عقل يفكر وهنا فى صدرى قلب ينبض بالايمان والحب والعزيمة القوية سأتغلب على كل المشاكل٠

ـــ ربنا معك ٠

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٥/٣٨٠٨

الترقيم الدولى : ١ – [illegible] – ١١٨ – ٩٧٧ – ISBN

كُتاب الهلال يقدم

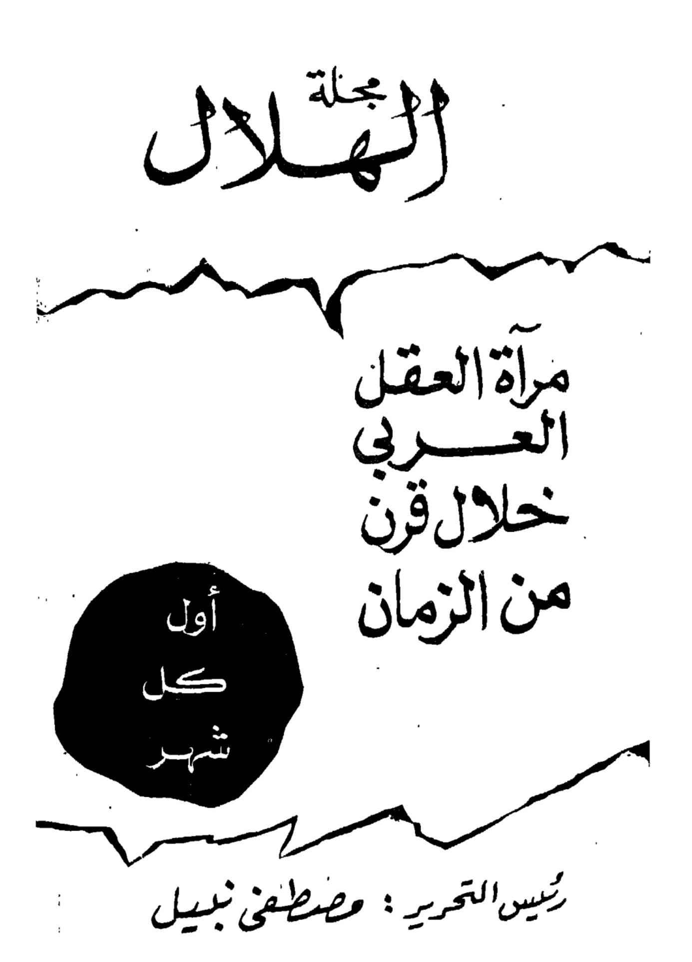
فى بيت أحمد أمين

بقلم : حسين أحمد أمين

يستعد العالم العربى للاحتفال عام ١٩٨٦ بالذكرى المئوية لمولد المفكر الدكتور أحمد أمين صاحب « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » و « ظهر الاسلام » وعشرات من الكتب الهامة .

ويسعد كتاب الهلال أن يكون أول من يسهم فى هذا الاحتفال بأن يقدم كتابا شائقا ، بالغ الطرافة والجدة بقلم أحد أبنائه الكاتب المعروف حسين أحمد امين .

يصدر ٥ يوليو سنة ١٩٨٥ عن مؤسسة دار الهلال .


مجلة
الهلال
مرآة العقل
العربي
خلال قرن
من الزمان
أول
كل
شهر
رئيس التحرير : مصطفى نبيل

٥٠ قرشا

هذه الرواية

ان من يبدأ قراءة رواية « الطيور ..لن تعود » للروائي المصرى الجادوالمتمكن من أدواته الفنية الروائية لا يمكنه ـ هذا القارىء ـ أن يترك هذا العمل بعد ان ينتهى منه .. ذلك لان الفنان يملك هذه السيطرة الهادئة المطمئنة على الحكى .. وذلك بفضل الوضوح والجلاء اللذين يقودانه فى طريقه الفنى ..وبفضل هذه اللغة..هذه اللغة الغنية الرائعة التى لعلها أهم انجازات الروائى المصرى عبدالمقصود محمد الذى كتب روايته وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره .. ولعله بدأ فى تسجيل أحداثها وهو فى الخامسة والعشرين .. أقول اللغة ، ذلك لان عبدالمقصود محمد قد توصل الى اكتشاف خطير .. وهو ان يضع لغته البلدية.. فى قالب عربى فصيح وبليغ وسليم.. وكأن هذه اللغة البسيطة ـ وبخاصة فى الحوار ـ قد بدت فى غلالة شفافة من الفصحى .. انك تسمع الحوار العامى خلف هذا الثوب الفصيح دون ان تحس بأى تصنع أو ادعاء أو تكلف..وذلك لانه يمتلك مصريته ولغته العربية .

ان عبدالمقصود محمد الذى أقرأ له لاول مرة يعى وعيا واضحا بطريقته .. ولم يبدأ الكتابة الا بعد أن تأكد من هذا الوعى .. ولهذا فهو يسير فى طريق رسم له خارطة واضحة المعالم . وشىء آخر احببته هو هذا التركيز الذكى الذى يلتزم به فى روايته ..وشىء ثالث هو روح المعاصرة التى تتجلى بوضوح فى مضمون روايته .. تحية اعجاب لروائى جديد .. عظيم .

توفيق حنا